خيري شلبي



أغنية للقمر الغائب

قصص قصيرة

خيـــــري شلـــــبي

أغنية للقمر الغائب

مجموعة قصصية

دار الشروق

أغنية للقمر الغائب
مجموعة قصصية
خيري شلبي
لوحة الغلاف: حسن الشرق
خطوط: رجائي عبد الله
إخراج: وليد طاهر
فكرة الغلاف: شيماء عزيز
الطبعة الأولى ١٩٧٨
طبعة دار الشروق الأولى ٢٠١٥
تصنيف الكتاب: أدب رواية
8 شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com
رقم الإيداع ٧٥٤٣/٢٠١٥
ISBN 978-977-09-3347-3

أغنية للقمر الغائب

.. وانزاحت عائشة، وتمطت، رفعت قامتها، نفضت عن هذا الرأس المكدود شريحة ليل، ورمتها. والليلة يا صبايا.. الليلة.. هيه.. الله كبير يا صبايا، وغني، وأمير، ويحب الناس ويكرمهم، وخصوصًا من هم فقراء، ما أحلى حظ الفقراء، ما أحلى آخرة المحتاج.. سيلاقي في الجنة أشياء لم يرها في حياته، وسيأكل، يلبس، يغسل، يتطهر من كل الأوساخ، وينام.. و.. و.. العانس في هذه الدنيا الخربة يا صبايا. في الجنة تتلاقى بعريس عملاق، وملاك، سيحضنها، ويقبلها، ويتوها في صدر رحب مترام الأطراف. والدنيا.. لتغور بدنياها ودناياها، لتغور فلا نطلبها.
وانبعث من القعدة صوت حالم، صوت صبية، جاءت، عبرت متسللة من سطح الجيران، لتزور السطح العامر بالسمر، قالت:
- يا عائشة، ما قولك في عزّ هبط على عمك فجأة، ليدندشه.. وليجعله رجلًا من بين الأعيان.. يمتلك الأرض يؤجرها وينال المال بغير حساب، ويزوج بنينًا وبنات من أبنائه.. والفخر لمن يحظى بمصاهرته؟
انغلقت عائشة للحظة، بعثت نظرتها شاردة في الجو، عانقت القمر الطالع، النائم كحمامة، في أعلى نخيل متباعد: يا جريد النخل يا عالي، ارفق بالقمر المتخفي في سعفك، احضنه ولكن لا تخفيه، أترى، ها هو يتمرد في صدرك، ويحاول أن يفلت من بين ذراعيك..
- عائشة.. عائشة.. مالك ساكتة يا أخت؟
قالت عائشة:
- الويل لعمّي.. الويل الويل.. قد كان حريًّا يأخذني ويعيشني ضمن بناته.. أو لست صبية؟ أو ليس له صبيان؟ لم يصبح في الدنيا أمان.. عمّي كثرت أراضيه. عمي لا يزرع شيئًا.. عمي لا يفعل شيئًا إلا أن يحصد ما زرع الناس.. قد كان فقيرًا لا يجد القوت.. قد كان أبي.. وأبي؟!..

* * *

.. في وسط الدار تمدد فوق حصيرة، يتقلب، يعطي للحائط ظهره، ويعود فيعطيها وجهه، ويلم ضلوعًا خاوية توشك تنفجر. وبألم وحلاوة روح، تتراقص أهداب مثقلة بسنين وسنين، تبلغ ستين، ينفخ، يتمطع، يعطي للحائط ظهره، ويمد ذراعًا معروقا ليعانق آخر من أسفل، يحضن بينهما رأسه، فلعل النوم يجيء، والنوم عنيد، وبخيل، وحقير لا ينبغي أن ينجد من هم في مثل الخطة، لا بل هو يمعن في الكيد فيسوق عليهم أثقالًا.. الدنيا حكم، أمثال. وتقول الأقوال: لا حاجة في الدنيا تدعى «شطارة»، بل يوجد شيء يدعى الحظ، ليتك تملك قيراطًا منه، أنفع من فدان «شطارة».. آه.. حكمتك يا رب، لك شأن في شأن الخلق. إني - لا سمح الله - لا أعتب.. فأنا عبدك مهما كان، وعلى كل هذا خطر عليّ، هكذا جاء، بخته، ماذا سنقول؟ لكن يا خسارة، لكأنك يا أخ «عليّ» لست شقيقي، لكأنك لم ترضع من ثديٍ أنا راضع منه، طول عمرك هذا، من يومك، ولد غدار وأناني، حتى مع نفسك في بعض الأحيان. تحضرني الآن حكاية كانت قد عبرت أحلامي في ليلة، حيث تمددت جواري، في النوم تغط وتتعمق، وإذا بي في الحلم أراك، تمشي وتثرثر، وتقول كلامًا لا يُفهم، عن دنيا قائمة في رأسك، فزجرتك ساعتها، وأردتك أن تمشي ساكت، فالجهد تبدد في اليوم، وتساقط عرقًا، قطرات ذابت في الطين - كان غريبًا ألا يصرفك الطين - مع أنك في الشغل تناولني قطرات منه، أتلقفها، وأغلف منها نبت الجدران، لأنميها، كيما يرتفع البنيان، وتجيء أخيرًا تفلقني بحديث تافه، مؤداه غرامك في فرس تركبه وتلف القرية تتمخطر، وتباهي بشبابك أخواتك، وتثير عقول الفتيات.. كان حريًّا أن أزجرك، لحظتها اجتزنا الحارة، ومررنا على بيت «إستيفانوس»، هو أعلى بيت في القرية، إذ يبلغ سبعة أدوار، سكان القرية ترهبه، فهو خراب من

أعوام، منذ اغتالت صاحبه الخمر، وهوى في عزّ شبابه، أبقت أسرته ذكراه الحسنة، ببقاء البيت بلا سكنى، مع أن التفتيش العالي قد أحضر آخر ليحل مكانه وليرعى محصول الضيعة لكن في بيت آخر.. ورأيتك فجأة يا شيطان تتسلق جدران البيت، كالقطة تقفز بمهارة، فقذفت وراءك أبصاري وأنا ذاهل، وهناك هناك على بعد المرأى، لمحتك عيوني كالقطة، كالرمز ـ الشاهد.. ما أفكه تلك اللحظة، إذ رحت أحاول تقليدك، فأخذت أشمر أطرافي، وأمد يداي وقدماي وأسناني، أتشبث في شيء يشدني بحديد الشباك، بنتوء بارز، لكني يا حسرة سقطت، وأصابتني الضحكات، يبعثها الرائح والغادي سخرية منّي، في حين كانت توخزني الآهات، لا بل كانت صرخات، بدليل أنك ليلتها قمت بفزع وشرعت تصحّيني.. من تلك الليلة يا ملعون آمنت بأنك لا بد ستعلو.. كم كنت أنا.. كم كنت غبيًّا، وحقيرًا، وجحودًا.. ما أغباني، ما أعماني، سوّأت معاملتي لك، ورميت بقفازي في وجهك، صرحت بأنك ترهقني، إذ قل الشغل ولم يصبح مثل الأول. وتجيء الأيام بصبح يأخذك فلا ترجع أبدًا.. فسألت الأفكار، وبعثت الذهن وراءك، لكنك عدت أخيرًا، وكأنك آت كي تشمت فيّ.. لا أكتم أني متحسر، وحزين، متأسف، لكنك لم تفعل شيئًا، لم تلق البال إليّ، بل سرت وخلفك أثوابك وثراؤك.. في رأسي ما زالت صورتك تؤرقني: الوجه المملوء دمًا، عكس زمان، والثوب الكشمير الغالي، وصديري، والساعة من ذهب خالص، وحذاء لامع، والأدهى من هذا وذاك طربوش عايق.. أصبحت أفنديًّا؟ والله عال.. أتقول سلام، وتمر، لا تجلس حتى لو بضع دقائق؟.. هل تنتقم لماضيك؟.. أم أنك مشغول عنّي؟.. فعلًا.. الدنيا شغلتك، أعطتك، رفعت من قدرك، أنستك أخاك، جعلتك تروح وتنسى أيامًا كانت تأتينا في زيّ ليال مثل نساء عجفاوات سوداوات منكوشات الشعر.. بالطول بالعرض قطعناها.. هل هذا سهل النسيان؟.. طب اجلس برهة.. قل سلامات.. ازاي الصحة.. كيف الأحوال.. افعل شيئًا، أولست أخاك مربيك معلمك الأشياء؟.. هيه.. يا للأزمان.. ما عاد الأخ يحب أخاه.. دنيا أموال ومصالح ومنافع! هل هذا يرضيك يا رب؟.. استغفرك وأتوب إليك، إذ أنت ولا شك عظيم وخطير، لا تفعل شيئًا إلا لمراد.. طيب.. الآن لديّ سؤال: هل هذا الولد العاق يستأهل عزًّا يغرقه ويفيض عليه، وأظل أنا مكدود الحال؟.. آه.. الآن تذكرت.. الواعظ قال: من كان فقيرًا في الدنيا عوّضه الله بآخرته.. يعني أنك تعطي لـ«عليّ» دنيا كيما تنزع آخرته.. وعلى كل الأحوال فأنا أوشكت على لقياك، فارزق عائشة يا رب، بعريس ابن حلال، هي طبعًا بنت مسكينة، لم يتهاد لمحطتها أيّ قطار.

وتثاءب «عبد الفتاح»، وتكوّر مرتكنًا للحائط، ويداه تلفان سيجارة، والنوم خرافة..

كانت «عائشة» تغني أغنية للقمر المتخفي في سعف النخل..

- انزلي يا بنت.. الفجر خلاص..
- نم يا أبي.. ماذا صحّاك؟..
- اللغو بلا جدوى فوق الأسطح.

لكن «اللغو» تصاعد، واحتجب القمر وغاب، وانثال عليه سحاب فوق سحاب.

(١٩٦٤)

موال في الزمان القديم

- ١ -

في صبيحة يوم قائظ جاء الرجال إلى البلد.. هبطوا على أرض النخيل.
راحوا يقيسون الأرض ويزعقون ويشخطون. جاءت لهم حارسة النخيل وأطلقت في الفضاء جعيرها. قال «المهندز»وهو يقبل نحوها:
- اهدئي يا ست.
شوحت في وجهه دون أن تخشاه:
- من أنتم وماذا تفعلون في أرض الخواجة؟
قال «المهندز»:
- نحن رجال الخاصة الخديوية.. رجال أفندينا.. طبعًا تعرفينه يا خالة.
زعقت بصوتها المشروخ:
- وما شأنكم بالأرض؟
صاح «المهندز» ضائقًا:
- ليس شأنك يا وليّة.
واستدار وراح يعمل. هي الأخرى استدارت. وبعد حين أقبلت، تجر غرارة ملآنة بحجارة. قلبتها على الأرض كومًا هائلًا، وصارت تقذف الجميع، وصار الرجال يتقافزون ويصيحون، وقطع الحجارة تلاحقهم على الطريق مثل صبيان أشقياء. وقال العمدة المسكين: «يا رجال الخاصة الخديوية لا تورطوني مع الخواجة. أنا لست قد الخواجة ولا أنتم. أرض النخيل أمامكم وقد عرفتم من قبل أن تحضروا أنها ملك له.. فافعلوا ما تشاءون ولكني لن أعاونكم على شيء. أما حارسة النخيل فإني لست قادرًا على تأديبها فهي كما تصلحون.. «حماية»».
عادوا بعد أيام وحطوا فوق أرض البائس المسكين «عبد السلام الشوربجي»، بضع قراريط كان يفلحها ويأكل العيال من ورائها الخبز واللفت والحمد لله. ليس للمسكين من ذنب سوى أن قراريطه في مواجهة النخيل. يومها صوتت زوجته وبكت، أما هو فلم يصرخ ولم يبك. إنما تمدد فوق حافة الزراق وصار والأرض شيئًا واحدًا، وحين رفعوه عنها كان يقطر طميًاوطينًا وماء ووريقات خضراء.. ثم ألقوه في داره كومة من اللحم لا تنفع ولا تشفع، يقضي النهار متقرفصًا ينشد الحياة، ومن فمه تتساقط قطرات من الأنين المكتوم. وجاء حلاق الصحة وانصرف. وجاء أهل الله من أصحاب الكرامات. حتى القابلة هي الأخرى جاءت وأدلت بالنصيحة وكأنه انقلب أنثى تحيض.

دخل العمدة ذات يوم كئيب وقال بسم الله يا أهل الدار.. ثم مشى نحو القاعة الجّوانية. لكنه سمع من خلفه مواءً خافتًا استطاع أن يميز فيه كلمة يا عمدة، ثم شرفت يا عمدة.. نظر حواليه فرأى فوق مصطبة الدهليز جوالا مقعيًّا محدودب القامة تبرق في رأسه عينان، كخرزتين تسبحان في بحيرة من الصدأ، وفيها سواد الفحم المحترق. انحنى عليه العمدة وقال: شد حيلك يا «عبد السلام». الأرض يا ولدي تساوي حياتنا ولكن ما باليد حيلة، الله يعوض عليك فلا تقتل نفسك وتقابل الله كافرًا. أتبكي يا رجل؟ هذا عيب. أنا لم أعرف أنك هكذا مثل النسوان..

وكان لا بد لعبد السلام أن يبكي، فالعمدة لا يجيء لخير أبدًا.. ويبدو أن العمدة قد أحس بما يدور في رأس الجوال المقعي على المصطبة يرعشه البكاء بلا صوت، فتحسس جيبه وقال مبتسمًا: ابسط يا عم فقد جئتك بالبشرى. وهنا انتصبت قامة الجوال. وقال العمدة وهو يخرج حافظة نقوده ويسحب من داخلها ورق البنكنوت الأخضر ويطوحها في وجه الوجه الشاحب: تعطفت عليك سماحة أفندينا وبعثني لك بثمن أرضك، عشرة جنيهات بالتمام والكمال. انكمشت قامة الجوال وخرج منها صوت ولا صوت له: ربنا يجبر خاطره. وبقيت يد العمدة معلقة في الهواء حتى تضايق. غرس نظرته الحامية في جسد الجوال وقال لا يعجبك المبلغ طبعًا.. كلام بيني وبينك يا أبا عبده لا تؤاخذني.. أرضك كانت عجفاء، مثل امرأة لا يزين صدرها ثديان.. أنسيت أنك من عبطك اخترتها على واجهة؟ أنسيت أن جيرتها للطريق جعلت الطريق يجور عليها ويحتويها ويرملها ويفسد تربتها، كما أن مواجهتها للنخيل حجبت الشمس عنها والهواء؟.. أنسيت أنك ضيعت فيها شبابك، ومع ذلك لم تغنك عن الشغل أجيرًا في أرض الوسية؟.. احمد الله على أنه خلصك منها.

تجمد الجوال وقال العمدة بعد برهة: «وعلى فكرة.. أفندينا سيجعلك بوابًا للقصر.. ألا تعرف؟.. أن أفندينا سيبني فوق أرضك قصرًا اسمه قصر الخاصة الخديوية.. وأنت.. ستكون بوابًا له. وجه الجوال مثل بيضة انفقشت وسال صفارها فوق زلطة كبيرة. قال العمدة وهو يلوي شفتيه «النعمة ثقيلة على بني آدم ووجه الفقر يرفسها». انفصلت عن الجوال زلطة مستديرة ناشفة الدماغ مغمضة العينين وصارت تتطوح وتهتز وتقول: شوف يا عمدة.. لن يرضيني ثمنًا لأرضي سوى أن تعود أرضي.. أما كونها بور وقد ضيعت فيها شبابي فهذا يجعلني أحزن عليها ولا أفرط فيها بأي مقابل. والعمدة لم يشأ الاستماع إلى بقية الكلام، فشوّح في وجه الجوال ونهض واقفًا ينفض عباءته، ثم رمى ورق البنكنوت على المصطبة وقال في غضب: هذه فلوسك أنت حر فيها.. أنا مخطئ لأني اعتبرتك وجئت لحد عندك.. ثم خرج يبرطم. خرج العمدة يا عين. ويا ليل بقيت أنت في الدار دهرًا طويلًا، وأمامك يتقرفص الجوال مشتاقًا لنور الخلاء.

كان أفنديـنا بذاته ينجعص أمام دوار العمدة يبُك الدم من وجهه الأجرد ويبدو طربوشه كأنه منحوت مع الوجه من صخرة واحدة. في إحدى يديه كرباج وفي الأخرى منشة، وحوله رجال يمروحون بالمروحة. ومن حين إلى حين يرفع إحدى إليتيه ويضرط بصوت عالٍ فيحترق الهواء، والعمدة يلوي أنفه ويشمئز ويعتدل في الحال ويعتذر عن وجود هذه البركة القذرة التي خلف داره. وأهل البلدة واقفون جميعهم لا يجرءون على الاقتراب، كما أعواد الحطب بعد تجريدها من النوّار. وصاح العمدة: «يا أهل البلد. هذا أفنديـنا»، فلم ينطق أحد، فصاح ثانية بصوت أعلى: «وقد تعطفت سماحته باعفائكم من الإتاوة هذا العام.. وسوف يبلغ الكاشف بهذا حتى لا يتعب قلوبكم بالمطالبة». هبت على أعواد الحطب ريح أحدثت بها خرخشة وصاح العمدة معلنًا: «كلكم مدينون للخواجة «جلانتي أبناء عم وشركاه».. وهو يهددكم بنزع ملكيتكم عما قريب.. وأفنديـنا سوف يخلصم من الخواجة إلى الأبد.. وغدًا يصبح النخيل نخيلكم ولا أحد يهددكم في أرزاقكم».. صفرت الريح بين الأعواد وضرط أفنديـنا واحترق الهواء، وصاح العمدة: «إن أفنديـنا سيبني لكم هنا قصرًا اسمه قصر الخاصة سوف يمدكم بالبذور وبالسلف ويوفر لكم المياه أيضًا وسيوفر لكم كل ما تطلبون دون أن تحملوا همّ السداد.. فأفنديـنا ليس كالخواجة إنما هو موحد بالله مثلكم ويخافه ويخشى عذاب يوم القيامة.. وسيكون لكم الأب الرحيم وسوف تستظلون بقصر الخاصة.. فما رأيكم في هذا الكلام؟» بقيت في مكانها الأعواد صامتة لا تعرف الرأي، فليس لها في الكلام.. وقال العمدة: «أفنديـنا لا يطلب منكم شيئًا كبيرًا.. إنه يطلب فقط أن تعاونوه في بناء القصر لوجه الله ولأجل النبي».. في الحال نطقوا في صوت واحد «اللهم صلِّ عليك يا نبي».

الناس تصحو لتسرح في الغيطان أو تجلس فوق المصاطب تنتظر من يطلبها للمساعدة لقاء غدوة أو حتى زردة شاي. وفي المساء يخمدهم التعب أو يرمي بهم الزهق في أحضان الغفر (زوجاتهم) والناس في بلدنا يتشوقون إلى الفرح ويشتهون البهجة، ويعرفون أن كل الكوارث تحدث اشتهاء للفرح، حتى القمر حين يختنق في بعض الليالي، فالطبل والزغاريد يلفان البلد ولا يسكت لهما دويّ حتى تنسحب الدماء الحمراء عن وجه القمر. وهم يعرفون أن من لف حبل المشنقة حول القمر هن بنات الحور لا بد، ولهذا يغنون لهن قائلين في ابتهاج حزين: «ياللا يا بنات الحور سيبو القمر يدور، وياللا يا بنات الجنة سيبوا القمر يتهنّى».

فجأة هاصت الدنيا وزاطت وقام في البلد فرح كبير، امتلأت شوارعها كلها بالأفندية حمر الوجوه يرطنون في همسهم وزعيقهم وعند تشويحهم. وكثر الغرباء ذوي السحن المحروقة والألسن المعووجة، والخرق والهلاهيل والمقاطف والفئوس والكريكات. جاءت عربات تجرها خيول وتحمل حجرًا ورملًا وطينًا وجيرًا وحديدًا وخشبًا وزلطًا، وعربجية يسبون الدّين ويشخرون ويتبوّلون وقوفًا على قارعة الطريق، وأهل البلد يتطوعون بإنزال الحمولات وحفر الأرض وتحويل المونة ومساعدة البنائين، ويضحكون في فرح، لكن شيئًا ما كان يبزغ في الأعماق فجأة يزغد القلب يهزه يكاد يدميه، ففي هذه الهجمة هربت بنات مع الأفندية، واختلت نساء ببعض الرجال مقابل قرش أو هدية أو ربما الإعجاب بالوسامة. وكثرت حوادث الصراخ في الليل، وزهقت الأسماع من ترديد الشتائم في العربجية..

وفي النهاية كل شيء يهون..

- ٥ -

قامت الجدران وارتفعت وظلت ترتفع حتى لم يعد أحد من الفلاحين يقدر على رؤية آخر الجدران، وكان ذلك يسعد الفلاحين ويجعلهم يفغرون أفواههم كلما نظروا إلى هذه الجدران التي أصبحت الشمس تشرق عليها فتحولها إلى ظل ينحدف على الأرض ويتمدد في أعماق البلد، وعند الغروب تبدو الجدران كأسوار النحاس المنصهر.

الفلك دوّار يا.. ولـدي. ويا عين ذوبي على ما قد حدث. فمنذ شهور يا ليل كان النخيل أعلى قامة في البلد. اليوم صار القصر أعلى. لم يعد في الوجود بلد اسمها «شباس» لا ولم يعد في العب كله بلدان تسمى بأسمائها. فأنت إما من القصر أو من ثالث بلد على يمينه أو من ثاني بلد على يساره.
آه منك يا زمن لست في صف الغلابة أبدًا ولا بد أنه بينك وبينهم ثأر مبيت من قديم الأزل، بالله قل يا زمن هل أنت كافر بالله حتى تفعل بالخلق هذه الأفاعيل؟ إن كنت يا زمن تنسى فلتتذكر ما فعلته في أبناء آدم الغلبانين الشقيانين بعد انتهائهم من بناء القصر.
يومها وقف «المهندز» فوق الدرجة العليا ليسلم الباب الكبير وأشار للأنفار من أهل البلد فتدافعوا نحوه يتساقطون، من الفرح أم من الإعياء لا يدري «المهندز» ولا هو يريد أن يدري. قال يا رجال هيّا نظفوا هذا الطريق بدءًا من الترعة حتى مدخل القصر الكبير. في نهار واحد كان الطريق قد استوى، بالردم والتصليح، على جانبيه ارتصت قصاري الزرع وأحواض الورد، وبقي الطريق في انتظار أن يطب أفندينا ومن معه من علية القوم المحترمين، وقالوا إن القصر أنشئ لاستقبال هذا اليوم.. ففي الأمر عروس.. وعريس.

سدّ الطريق في وجه كل الفلاحين وخصص للعربات والأحذية وأقدام الخيل، وتوافد السادة الكبار. وكانت الخيول تدخل الطريق المعبد تجر عربات تحمل الأسرّة والدواليب والترابيزات والكراسي والسجاجيد والألحفة، وغير ذلك من المقنولات التي جعلت القصر من الداخل شيئًا لا مثيل له، وصار خدم القصر وعبيده يحكون للناس عنه، كما صار شيخ المسجد يصف جنة الخلد قائلًا للمصلين «كأنها قصر الخاصة بكل ما فيه».

أسفي عليك يا «عبد السلام» يا شوربجي. حين نقلتك زوجتك ووضعتك أمام بوابة القصر لكي تكون بوابًا له كما اتفقوا معك. صرخت الجدران لحظتها وهدرت ورددت أدواره العليا كلها كلمة واحدة «اكنسوا هذه الوساخة من هنا»، وكنستك أيدي إخوانك من أهالي البلد ثم كنسوا الأرض من آثار أقدامهم.. أين تذهب يا «عبد السلام» وأنت جسد معبأ في غرارة؟ لكن الغرارة فجأة تنتفض وتتمزق إربًا تتناثر في الهواء، انتصب الجسد واقفًا كأبينا آدم لحظة أن تساقطت عن جسده أوراق الشجر. زايلك الهزال وصرت تصرخ في مواجهة القصر لكن صوتك يعلق بجريد النخيل ويتساقط في الأرض حواليك فيدفعك نحو القصر في غضب، يراك النساء فيشهقن ثم يصرخن ثم يستدرن عائدات، ويتمعن فيك الرجال ويلوون الشفاة، وصوتك المبحوح يعوي ثم يعوي. اعترضك الخفراء ظلوا يدفعونك، يزغدونك، يضربونك بالشلاليت وبالدباشك، ووقعت ثم وقفت ثم وقعت ثم انطرحت فتركوك جسدًا هامدًا، وهرعوا لاستقبال الوفود والمواكب. طرح العمدة عليك عباءته، وعرضت زوجك سقف دارها لمن يعطيها ثمن الكفن، وكان النهار قد انتصف.

في الظهيرة كان الأفندية والبكوات والباشوات ينجعصون أمام القصر وبين خطوط النخيل. يضحكون، يقهقهون، يصيحون، يطرقعون أكف بعضهم بعضا وفي فرح كما الصبيان. دهش الناس لأنهم يعرفون الأفندية، خلقوا ليتجهّموا في وجوه الفلاحين ويشخطون فيهم ويسوطونهم ويضربونهم بالشلاليت ويأخذون محصولهم أو يشترونه منهم برخص التراب، أما أن يكونوا مهزئين هكذا فذلك ما لم يعرفوه، واليوم لا يتصورون أنه واقع. الخرفان والعجول التي انتزعت من أهالي البلد وتم ذبحها بمعونتهم تحولت إلى أطباق تروح وتجيء بين أيدي رجال يلبسون أبيض في أبيض.. ثم تندلق في عشرات الكروش تتعاقب على المائدة. في العصر تسلقت الفوانيس والكلوبات هامات النخيل.. وحضرت وفود جديدة تحفها الزغاريد وطلقات الرصاص.. تطوعت نساء البلدة وبأصواتهن الرائعة علّمن نسوان البندر أصول الزغردة، لم يكن لهن ناقة في الموضوع ولا جمل.. ولكن نسوان بلدتنا مثلهن مثل رجالها توّاقات إلى الفرح دائمًا حتى ولو تم في بيوت غير بيوتهن. كان ركب الزغاريد طويلًا وعريضًا وحافلًا، هبط من مقدمته رجال يلبسون الحلل الصفراء ويمسكون الطبول والمزامير والدفوف، وكان الفلاحون يتقاطرون من كل ناحية ويزحفون نحو الموكب في حذر وخشية، يتهدل الفرح فوق ملامحهم، جعلوا للفرح جسدًا بارزًا وقذفوا في قلبه ولدانا تطير لاعبة راقصة مبارزة، غير أن الطبول ما لبثت أن خمدت بإرادتها وسحقت كل نبضات البهجة، ثم حلق في سماء الدائرة نغم حرج، ثم تشقق جسم الفرح ومن شقوقه طلع الخفراء بالعصي التي أخذت تنهال بلا رحمة فوق الأجساد الفرحة، إلى أن هرعت الجلاليب مذعورة، وتطايرت في الهواء بلغهم وبراطيشهم وضحكاتهم المكسوفة البلهاء، صفصف الجو على الطرابيش والعباءات، لكنها جميعًا كانت تسبح في غبار بدا للفلاحين الذين وقفوا بعيدًا يتفرجون كأنه قفص من الدخان، ثم طُلبوا للغداء فهرولوا خلف بعضهم يتسابقون.

العريس ولد حليوة أما العروس فقالب من الزبد تبارك الخلاق فيما خلق. في الدور الأرضي جلست فوق الكراسي العالية، جلست تتألق وتضوي وتضمخ هواء القرية كلها بعطر فاجر مجنون، أميرة تجاورها وصيفات بإرادتهن خسفن أضواءهن مجاملة لها. وفي الصالة الكبيرة الفخيمة والحجرات كلها نساء من بنات الحور لا بد، وعوالم فرح وآلاتية وصاجات ومزاهر، وأكواب الشربات لا تكف عن الدخول والخروج رغم تعفف الحسناوات. العروس ابنة أفندينا، أما العريس فابن أرملة حسناء باعت جسدها للباشاوات ولجنود الاحتلال، فأنجبته ولدًا سمهريّ القوام ملون العينين، يبيع جسده أيضًا لنفس الباشاوات ونفس الجنود، ويبيع حسنه الرقيع لأبناء القصور وبنات البيوتات ويأخذ أعينهن ثم قلوبهن ثم ينفق من خزائن آبائهن، وقد فازت في السباق خزائن أفندينا، من أجلها جاء الفتى يعتلي الابنة والضيعة زوجًا وناظرًا، أي عزّ يا عريس وأي فرحة، كل العرسان تزف زفافًا واحدًا أما أنت فتزف الليلة إلى (العروس ـ الضيعة ـ القصر) فما أسعدك، ولقد حار المدعوون على أي زفاف يهنئون، وكل زفاف يلزمه كلام وفعل وورود..

كل واحد في البلد تمنى أن يرى العريس رؤية العين، ووقف كبير الخدم أمام القصر ينظم الخفراء حول الأسوار ويزأر في الناس قائلًا: «أيها المناكيد ما الذي تريدون رؤيته؟»، ثم يهمس في أذن الخفراء المتلهفين: «حتى أنتم تريدون رؤيته؟»، ثم يصير همسه إلى ما يشبه الفحيح اللاهث: «إنه آدمي مثلنا وابن تسعة ولا فرق بينه وبينكم سوى أنه محظوظ دعت له أمه في ليلة قدر، وليلة القدر هذه بعيدة عن شواربكم يا أيها المناكيد، فأنتم جميعًا أولاد نسوان طمست الدنيا الوسخة بصيرتهن وأعماها المش والبصل واللفت عن رؤية كل شيء، ولذا فواحدة من أمهاتكم لن ترى ليلة القدر طول حياتها». يكتم الخفراء ضحكاتهم في أكمامهم ويعضون على نواجذهم بينما يتلفتون حواليهم في خوف. ويستدير كبير الخدم يصفق كفا على كف ويقول: عشنا وشفنا الناس لا تتلهف على رؤية العروس بل يشغلها رؤية العريس.

لكن الموال رآه ورأى كل شيء، فمن غير الموال يستطيع أن يرى. لقد كان حاضرًا وكانت الأرض أيضًا حاضرة: امرأة فتية عملاقة، لكن الحزن واراها في أحد الأركان ولفعها بشاش أسود ولثمها وكمم فمها، لكنها مع الموال تحدثت، نشجت في الناي وزفرت في الأرغول ونهنهت في السلامية ولطمت خدود الدف وتأوهت تحت قوس الرباب. ولقد زحفت أغاني المدينة والبشارف والطقاطيق، فشخلعت الغوازي وأغرقت الجميع في الخمر والنقود. كان العريس يخوض في بحر من اللبن ويقهقه، من يد المهنئين يتناول كئوس الخمر يجرعها في شره مجنون ثم يقهقه. تشيله الأغنيات، من فرط النشوة يتمايل، ترتمي على صدوه الغوازي يحوطنه بالأجساد الرخصة يشعلن فيه نار الهوى المشبوب، ومن فرط الهوى يتطاير يكاد يتفتت، يتمايل، يتساند، يتحسس، يلثم ويضم، يقبل، يحضن، يتدافع بين الحجرات يفتش عن شيء لم يستمتع به، في كل جدار مرآة، وفي كل مرآة عشرات الأفراح، وفي كل الأفراح لا عريس غيره. الفرح يوغل في الليل، والليل يوغل في الفرح، والعريس مترع بالنشوة. تعبت الحضور وانهدت الأجساد المتشيطنة، وقلت كثافة الجمع وصوت الإيقاع لا يصيبه الوهن. في أسماع الليل يدب يطوّح جسد عريس الشؤم الغائب عن كل وجود. ولقد عجزت كل الأيدي، من فرط البهجة عن تهدئته. انصهرت روح الشيطان بأعماقه. دار ودار وكان يقهقه، ثم تهاوى فوق الأرض كعود القصب اليابس. اندفع القصر بحاله. أخذ يقلب في الجسد المنطرح ويشهق فزعًا: يا حول الله.

غلّقت الأبواب كلها. انخفضت رءوس المناكيد كأنهم الجنان. غطست البلدة كلها في غبار رمادي كئيب. بدا أن الصقيع لن يفارقها إلى الأبد، وسيظل يصبغ نهارها بمسحة ليلية داكنة. ولم يعد أحد يمكث فيها طويلًا، فالكل يبحث عن الشمس في خلاء بعيد، ولا بد أن عفريت العريس ينفخ في بطن القرية جبالا من الركود، والخوف يملأ الليل بالعفاريت المردة والندّاهات و.. الطريق التي احتجزها القصر لنفسه لا تزال تستنشق رائحة الأقدام، وتتشوق إلى روث البهائم. والمناكيد يعودون مع الغروب كل يوم من طرق بعيدة وغير سالكة، فإذا نظرتهم من بعيد وجدتهم كأنهم بقايا جروح غائرة في جبين المساء.

يا أيها المناكيد ما سر ما في أعماقكم من حزن؟ قالوا: التوق إلى الفرح. يا أيها المناكيد ما سر ما في أعماقكم من خوف؟ قالوا: الموت تحت سنابك الأقدام.

(مارس ١٩٦٣)

أنشودة الكورس الحزين

في حواري قرية عابسة، تنام مستلقية تحت ظلال الصفصاف، وتطمئن كلما نظرت صورتها في قاع النهر.. يمر.. كل يوم.. ثلاثة صبيان وربابة.. وينثرن هذه المقاطع.
المقطع الأول:
بركات ولد غلبان، جدع مقهور.. تنطق عيونه بالعذاب والألم.جلبابه «الكزمير» قال: يا أهل البلد الولد غلبان، الولد بردان، هذا حرام، هل من كريم؟ هل من عطوف القلب يستر ذلك الجسد المضام؟!
فتغافلت عنه العيون، حتى كبار القلب قالوا: مالنا! أو ليس للمظلوم أم تستره؟ مع أنهم ـ يا ألف حسرة ـ يدركون المسألة. والمهزلة، إن القلوب صديقة وربيبة للفتى بركات!.. إن السؤال يظل يطرح في الحواري والحقول وعند بئر الساقية ـ إن غاب عنهم ليلة أو بضع يوم:
- يعني.. لم يبن بركات.
- ألم يظهر هنا بركات؟
- لا بد أن اليأس قد أضناه.
- أو قل طواه الشوق للأحباب.
- تقصد بها الجنية؟.. هو لا يبارح حضنها.
- أفلا يبارح جفنها؟!
- لم لا تقولوا إنه قد جن؟
- ذاك قول صادق.. ذهبت بعقله الجنية.
- والله قد رحمته.. رحمته من أمه.
- أمه سلبته صوابه.
- فارتمى في حضن جنية.
- يا للفظاعة يا رفاق.. هل من صخور قدّ ذاك القلب؟!
- حينما يتزوج الشيطان أمًّا أرملة.. لا تنتظر منها حنانًا.
عاد الفتى بركات؟!.. أهلًا وسهلًا يا ولد. من خوفنا ذهبت بنا شتّى الظنون، قلنا بأنك قد ذهبت إلى هناك. هيه. ما حال خلق الله تحت الأرض؟ ما حالها محبوبتك؟ هل أتاها حديث أمك يا ولد؟.. آ..ه.. تضحك؟! لابد أنك لا تريد البوح بالسرّ الدفين!.. نحن نعلم أن كشف السرّ يعني قصم ظهرك! لكننا والله لا نبغي سوى نفعك.. ولتنحسر أستار سرك أو لتبقى مسدلة.. لكن بحق الله قل: ما شكل ما تحت هذي الأرض؟.. لا بد أن أناسها قوم يحبون الحقيقة!.. لا بد أن سنينهم قمر وشمس دائمان!.. لا بد!..
.. ضحك الفتى بركات. مشي لف البلد. نثر السلام على المصاطب والمنادر والحواري والدكك.. ثم جرر خلفه البركات والدعوات وقولة اتفضل.. صافحت قدماه أرض الناحية. بسمت له الفتيات من تحت الزلع. غنى له الصبيان:
- «بركات يا بركات. اغطس وقب وهات. انزل لتحت الأرض. واستحضر البركات. ولأهل فوق الأرض.. استلهم الدعوات.. يا من أبوه مات.. وخلف الفدادين.. وضاعت الفدادين.. أضاعها الشيطان.. من أجل رمشة عين.. سوداء لون الليل.. والليل فيها نهار، أحلام شيطان.. أذاب شمعتها.. وفقأ حبتها.. وصار يبعثها.. تبيع الكحل للفتيات.. والعطر والمناديل.. وأنت يا بركات.. تهرب لتحت الأرض.. وتغيب في الأعماق.. تحضنك جنية.. تسقيك حنية.. فترتوي وتعود، بالخير والبركات، والحب يا بركات».

في موكب الصبيان ينتشي بركات.. وينسى أهل فوق الأرض.. وينسى ذلك الشيطان. وعند بئر الساقية.. يحاط بصبية الحارة.. يحكي لهم حواديت:
- «الليل يا أولاد غول قابع في الدار، بأستاره السوداء يحمي أمّنا الغولة، وغولة البر يا أولاد.. أنيابها تغوص في أكتاف أبنائها، فجوفها ضرير وقلبها شرّير.. في قبضة الشيطان! يا ويلها منه.. لو أنها خدعته أو حركت ذنبًا.. من غير ما يعلم».
- يا لوعة الأبناء!
- .. أما تدرون يا أولاد؟
- أخبرنا يا بركات.
- ستجيء نداهة.. في ليلة ظلماء.. لتنقذ الغولة، من قبضة الشيطان، وتسلب الغولة.. روح غيلتها!
- وكيف يا بركات؟
- ستغيب بالشيطان: تطرق عليه الباب، تدعوه للصحبة.. تربطه في حبل.. وتلف ظهر الأرض.. تدفنه في النار، في أحضان ما لها شطآن!
- وبعد يا بركات؟!
- تحرقه في لمحة..
- بركات.. بركات.. هل يخدع الشيطان؟
بعث الفتى عينيه للاشيء. وضاعت الكلمات.
ويظل برهة ساكنًا مثل الصنم.. وكأنه فقد الحياة إلى الأبد.. وتترى حوله النظرات تطوف بوجهه المسلوب. ومجمرة في يد الشيخ المعمم بالقلوب.. أخذ «تبخر» ذلك الوجه الحبيب.
ويسري في دخيلتهم دبيب حلو: فها هو الفتى يودع أهل فوق الأرض.. وبعد برهة سيغيب في الأعماق!
وبعد هنيهة وقف الفتى. أطلق في الفضاء الرحب صرخة لوعة.. فارتج سطح الماء فوق البئر.. وانشق في الحال.. طاويًا بركات.
ويرجع موكب الصبيان. يدمدم في خطوهم صوت الحكاية.. ويغلي في صدورهم الصغيرة خاطر مبهم.

* * *

يعود الرجال من الحقول في المساء يتأبطون حزمًا من الأسئلة. تسحبهم البهائم إلى الدور. تختلس أعوادًا من الحزم وتلوكها في صمت.. والرجال يجترون الخواء والسأم، وموكب الصبيان يتلوى وينحني ويتعرج وينسد ويذوب في قيعان الدور.. الأسرة على مصاطب القيعان في المساء ذبالة عليلة تلفظ من الهباب الأسود أضعاف ما تبعثه من ضوء أليف. وطبق العشاء في صحن الدار قطع شهية من قلب أمّنا الغولة. وقلل من الفخار تنهمر الدموع من شتى مآقيها. دموعها قطرات ماء البئر. زغردي يا قلل.. املئي صمت الديار طنينًا أجوف. عمري ليلها الخاوي بشيء أي شيء. الليل صوت الساقية، نواح النواعير، تحكي قصة الأبد المطلسم: «طارة» مهولة تدور في هدوء قاتل تخرج من الأعماق مفتوحة الأحداق، تبصق على هذا العالم ادفاقًا من الأسرار تجيش في شتى الصدور!..
.. «لكأن ماء البئر يا بركات يطفئ لوعتك.. ما إن تحتضنك حتى تحس بالارتواء، تدوخ أنت لحظتها، تدوخ وتدوخ وتكاد تهوي من شدة الفزع.. ولا يريحك سوى هذه الأحضان الحنونة!.. إنها تعيد إليك صوابك. ها أنت، بالرغم من أنك قد أفقت وانزاح عنك ذلك الكابوس الثقيل.. تحس

أنك لا تود الانسلاخ من هذا الكيان الرطيب. آه ما أحلاه. خد لك غطسًا آخر.. وآخر.. وآخر.. ابق تحت الماء أبدا.. ما أحلى التنفس من خلال الموج.. كتل الماء تفتح خياشيمك وتبعث في جسدك الحياة.. ألا تدري ما السر في ذلك يا ولد؟! بالطبع لا تدري. كل ما تدريه أنك ساعة قذفت نفسك في هذا الخضم كنت لا تبغي إلى الوجود عودة. خلعت ثوب الحياة واندفعت في جوف البئر عاريًا منها.. فكيف يلتحف جسدك بهذا الثوب السحري.. كيف لم تكن تدري أنك كنت شخلويا من النار قذفته عين الشيطان في لحظة غضب جنونية، وكان لا بد أن ينطفئ في هذا الجوف الذي يحتويك؟!»..
أرخى الفتى ذراعيه على صفحة الماء. اهتز رأسه فوقها بنشوة عارمة. صور متلاحقة تدهمه دونما هوادة أو رحمة:
في ليلة سوداء مثل الكحل دخلت أمه القاعة، لطمت خدها.. وصرخت صرخة مكتومة جاءت بملاءة بيضاء غطت بها ذلك الجسد الممدد في الفراش. الفجر يطلع لكنه فجر كئيب. لم يكن ليله قد انسحب، فقط، انكمش وتكثف، وانصب في كتل متراصة تحتشد بها القاعة، لها عديد من الأيدي والرءوس، تنتفض وتصدر أصواتًا مشروخة من فرط الارتياع. النعش يتهادى وسط موكب حافل بكتل أخرى تتحرك ولكنها لا تصدر أصواتًا ، يمر النعش بالزاوية، يزوده الفقيه بنصيبه من الصلوات.. يغبطه على متاع الآخرة، الذي هو ذاهب إلى لقياه. انفتح باب القبر عن فجوة ظلماء فح الليل من جوفها عفن الرائحة، لا بد أنه كان مسجونًا بداخلها قبل نشأة الدنيا.. ليل معتق، هب من جوف المقبرة فزعًا ثم عشش في جوف الدار وصنع له مخدعًا جميلا مستقرًا.. أخذت له الأم زخرفها وازينت وفي حضنه نامت!!
يا ليل يا شيطان، أمه خلعت لك السواد.. وبرق عريها في جوفك الضرير. تقلبت الدنيا في حضنك وتلوت، وتمطت وتثاءبت. وعصرها ساعدك القوي بقسوة فتأوهت. تهدل على ذراعيك شعرها فكأنكما معًا شجرة صفصاف رمتها الطبيعة على هامش الشطآن!.. تسلل صوت الأم من القاعة الجوانية كصوت مواء القط، ممطوط مرتعش، مختلط بضحكات. نهض الصبي من نومه في الدهاليز. دفع باب القاعة انشق الصمت عن شهقة فزعة ، وطنين شيء ثقيل يهوي على الأرض. توقف الوجود هنيهة، يد من حديد تطبق على عنق الصبي، تشده خارج القاعة. تعيده إلى فراشه، تلصقه بالأرض في قوة جبارة. خنقت على شفتي الصبي صرخة ملتاعة، من شدة الخوف نام كأنه مات.
في الصبح جمع صبية الحارة، وراح يحكي حلمه المشئوم. هكذا سماه، كيما يصدق الأولاد، ألم ير الشيطان؟ لكنه لم يكمل. هبطت أمه كالقدر. جذبته من يده هوت عليه كأنها تقتله. وجاء الليل بالشيطان، وفي عينيه نار موقدة، سددها إليه في حدة وأمره أن يقترب، فتباعد الصبي.. دب الفزع في قلبه، أطلق مع الريح ساقيه، فزلزلت الأرض خلفه، نظر وراءه، فإذا الشيطان يلاحقه، علت صرخاته، ظل يجري.. ويجري.. وتزلزلت الأرض خلفه.. والفضاء ممتد أمامه كسجن عريض. لا بد أن يتوارى أين؟.. خيال شجرة الجميز يلمع في صفحة البئر. الأرض تهدر خلفه. يد الشيطان تكاد تلمسه. صرخ. صرخ.صرخ. انشق ماء البئر وابتلعه، اصطدم في جوفه بأشياء بارزة، تشبث بها. ظل برهة معلقًا بين الماء والهواء. أحس فيها بدبيب خطى الشيطان تتراجع وتبتعد ثم تختفي. خرج من أعماق البئر، ووقف وحده طويلًا، أحس برهبة المكان من حوله، طنّ في سمعه دبيب الخطى من جديد. خيّل إليه أن خطى الشيطان تبحث عنه.. وحتمًا ستصل إليه. لا بد أن يهرب. ولكن أين؟.. هل من ملاذ؟.. والفضاء سجن فسيح! نزل البئر ثانية، حرك ذراعيه وقدميه في

همجية. اكتشف أنه يستطيع البقاء على سطح الماء فترة طويلة. في الصباح ظل واقفًا طول النهار في الشمس يرتجف. رآه الناس يخرج من البئر، بانت على وجوههم دهشة. قالوا: إذن لم يمت بركات.. كما قد أعلن الشيطان..
.. من يومها والبئر حضن حنون يحضنك. ومن يوم إلى يوم تغوص في أعماقه.. البئر نبع زلال لا قرار له.

* * *

هجر الفتى داره من ذلك اليوم البعيد. أصبحت أرض الحواري مرقده. وخضرة الحقول مرتعه. وفي أعماق البئر يفرغ همومه.. ومن حين إلى حين يعود إلى البلد، وفي عينيه نظرة بلهاء.. وفوق ثغره بسمة غامضة، وقيل «لقد رافق الجنية».
- «... الجنية؟! الجنية يا من يحكون ويحيكون قصة حبك لي.. آه يا حبيبتي الجنية. آه لو ألتقي بك.. أو تلتقين بي.. آ..ه.. جنية؟!».
المقطع الثاني:
كانت «أم الخير» تملأ البلاص من ذلك النبغ الزلال. أرخت الحبل وتركت البلاص يغوص في الماء.. ثم انحنت ترفعها.. فانفك قفل «كردانها».. وابتلعته أعماق البئر. صرخت «أم الخير».. لطمت خديها.. ذهبت إلى الدار من فورها صريخها يلف الحواري ويتسرب إلى القيعان من خلال أعواد الجريد المطبقة على الطاقات والنوافذ والأسطح.. وانتفض الدجاج في الحظائر، وعوت الكلاب فوق الأسطح، ونهق حمار، وصرخ طفل على حجر أمه، وانقلب «بكرج» الشاي على يد أحد الآباء فانسلخت. لفظت الدور نساءها ورجالها وبصقتهم على العتبات يشدهم فضول غريزي. «أم الخير» تتدحرج. تسابق الجميع في سلب لب الحكاية بمختلف الأساليب. فمنهم من خطف منها جملة ومنهم من سارت خلفها تجمع ما يتساقط من فمها من كلمات. تكاثرت الكلمات وتناثرت وتحولت إلى رجال ونساء وأطفال وربما دواب، يسيرون خلفها وفي أعماقهم حماس غامض إلى انتظار شيء مجهول. توقفت بهم عند منزلها. ثم، كأنهم جميعًا كانوا يدخرون ما في حوزتهم من كلام لحين وصولهم إلى هذا المكان.. فما لبث أن ارتفعت في الجو أصوات متداخلة متشابكة تتناحر ولا تقول شيئًا مفهومًا على الإطلاق.
وحينما هبطت «أم الخير» صحن دارها وهبط رأسها على صدر أمها.. آبت الأصوات إلى شيء يشبه التحفز أو الانتظار.. انتظار شيء ما.. شيء يبدد صمت الليالي ويحرك ماء البئر الآسن في حياتهم. ثمة ولع بمأساة ما يرقد في كل هذه الأعماق، ولع غريب، بحدث جل، أمضى الجميع أعمارهم في انتظاره.
وفي ليلتنا هذه انسحبت الشجاعة من كل الأوصال، حتى من قلوب العديد من شبان البلد العايقين المتعشمين في بسمة رضاء من أم الخير. فالبئر ربما كان بئرًا. وأضعف مخلوق من هؤلاءخاض غمار المصارف والترع وآبار السواقي آلاف المرات، أما بئر بركات، بئر جنيته الحبيبة.. فأين هو الشجاع الذي يضحي بعمره ويقترب منه لقاء بسمة من أم الخير؟
الكل كان يتمنى قدوم يوم كهذا اليوم، وبالتحديد لحظة كهذه. لحظة كانت أمنية تعشش في أذهان البلد خاصة شبانها، لكي تتاح لهم فرصة الاستمتاع بالكشف عن شجاعتهم واستبسالهم وطاقاتهم الثرية المختزنة في بطن الخواء اليومي الرتيب. فما بالك وأم الخير هي صاحبة الموقف. يا طالما جاءت سيرتها في خاطر أحد الشبان فتمنى أن تجمعه الظروف بها في حادث يثبت لها أنه ولد ولا

كل الولدان. ولكن ها هي أم الخير في كارثة، فقدت كردانها الثمين الذي لف صيته العب كله، فصار أغنية على نهديها. وها هم جميعًا يرونها تتمزق: جزء عظيم من جمالها ضاع..
مر الفتى بركات، زعقوا جميعًا قائلين: تعال يا بركات.. فجاءهم بركات يجري وفي قفزاته حب كبير:
- هيا يا بركات..
- احضر لنا الكردان..
- خذ ما تشاء من النقود..
- بركات لا يبغي نقودًا.. بركات جدع..
- لا تكثروا الكلمات.. هو سوف يفعل دون أن نرجوه..
لم يدر الفتى شيئًا.. لا ولم يفهم عن الكلمات.. سرب الحنان رفرف قادمًا يتهادى من عيني أم الخير.. ولكن من خلف نظرة انكسار مبللة بالدموع.. «ما أمتع الجمال والأحزان تغسله».. أم الخير رفيقة الصبا.. كم لعبا سويًّا لعبة العريس والعروسة!.. كم ذابت في حضنه طفلة طرية شهية موردة الخدود متألقة الملامح مسمسمة!.. كم بكى لأنها غضبت منه، لم تستجب لندائه ساعة اللعب!.. مسّاك الله بالخير يا أم الخير ماذا على بركات أن يفعله.. هل لو فعلت يا أم الخير تسمحين لي بالجلوس فوق كرسي خدك فانجعص ويحدوني الشوق فأستحم من بحريّ عينيك الصافيتين؟ اطلبي يا أم الخير.. اطلبي.
سرب الحنان يخفت.. وتتكسر أجنحته فتهوي به إلى الأرض. ضحكات بلهاء تتساقط من شفتي بركات، فتطن في الأرض مكتومة الصدى..
- همتك يا بركات.
- هيا يا بركات.
المقطع الثالث:
تزحزح الجمع دافعا بركات نحو البئر. موكب ضم أهل البلد.. بالطبول.. والشخاليل.. والزغاريد.. حملوه فوق رقابهم، وهتافهم زلزل الأعماق من نفس الفتى:
- «بركات يا بركات. يا ابن البلد يا أمير. اغطس وقب وهات.. كردان أم الخير.. واستحضر البركات ولأهل فوق الأرض.. استلهم الدعوات.. يا ابن البلد يا همام».
طرح الفتى عينيه في زهو سعيد، لا بد أن الأرض ترقص له.. لا بد أن هذا يوم عرسه. نعم لا بد. إنه بالفعل هكذا.. لماذا لا؟!.. أبشر يا ولد.. إن هذا العرس عرسك. تبختر يا عريس فهذي ليلتك.. لا شك أنهم يزفونك إلى عروسك الحبيبة.. إلى.. الجنية.. ويقولون كردانًا؟ وأم الخير؟.. لا.. إنهم قد أخطئوا..لا لم يخطئوا.. أنا الذي لم أسمع جيدًا.. ليس اسمها أم الخير.. اسمها الجنية.. ولسوف تعثر على الكردان يا بركات.. وفرحًا سعيدًا ترشقه في صدر عروسك.. الجنية.. أليس هكذا يا أهل البلد؟!..
قالوا:
- ماذا يا فتى الفتيان؟
قال:
- ألستم الآن تزفونني.. إلى الجنية؟!
هتفوا جميعًا وفي أعماقهم صدق حقيقي:
-نعم يا فتانا.. وإن هذا اليوم أسعد يوم..

قال بينما يهدهد نفسه فوق الرقاب:
- وأليس ذلك الكردان كردانها؟
قالوا وقد غاب عن أذهانهم موضوع أم الخير:
- فليكن.. وكل ما تبغيه.. تعطيه للجنية..
زعق الفتى زعقة هزت فروع الشجر. نادى وقال:
- يا جنيتي.. قد جاءك العريس يا جنية.. جاء تزفه كل البلد، فرحانة بزفافنا، فلترقصي ولتسعدي.. فها أنا قادم إليك يا جنية.
ودب في الأوصال لهب ساخن، ودوى في الفضاء قرع الطبول. ولحق بالموكب موكب آخر. تفتقت الأرض عن أفواج لا حصر لها من البشر.. تحمل المشاعل والمزامير، والدفوف والشخاليل والبيارق.. وتهز أركان الفضاء.. تطايرت في الجو آلاف الزغاريد، كالعصافير الطليقة، ترفرف وتحط على رأس الفتى بركات..
وعند البئر أنزلوه.. و.. تركوه.. يتقدم وحده.. ثم تراجعوا.. تمامًا، كما يتركون العريس يدخل مخدع عروسه.. انخرس كل شيء.. كأن الوجود شملته لحظة صمت خرافية.. لم يقطعه سوى انشقاق الماء.. ثم انطباقه.. ثم ما لبث طنينه أن ذاب في الأفق البعيد.. كما ذاب الفتى بركات في عمق بعيد. الأنفاس كأنها تعلقت بصفحة الماء، الآذان أرهفت، الأحاسيس تيقظت. الكل لاهث الأنفاس في انتظار صرخة كصرخة العروس، لحظة تخدش بكارتها. لكن لحظة طويلة مرت، كأنها دهرطويل ثقيل غير أن اللحظة طالت وطالت.. واستحال الواقفون إلى تماثيل.. كأنهم نتوءات بارزة على سطح الأرض، كل ما فيها عيون تبرق وترسل إلى صفحة الماء نظرات شاحبة، على أنهم ما لبثوا أن استبانوا خلال الماء كتلة غامقة تطفو على سطحها شيئًا فشيئًا.. ما لبثت أن تجسمت.. إنها.. بركات.. كتلة لحم ذات رأس متهدل.. تقيأت على صفحة الماء دمًا قانيًا مشوبًا بزرقة.. ثم عادت تهبط من جديد، إلى أن غابت في الأعماق البعيدة.
وبعد جهد جهيد، استطاعت النتوءات البارزة على سطح الأرض أن تتحرك، بما يسمح لها ـ بصعوبة شديدة ـ أن تلوي الشفاة والأعناق، وأن تلتقي النظرات بالنظرات، وربما يكون قد مر دهر كبير، استطاعوا بعده أن يقولوا بأسف وأسى:
- «واحسرتاه.. لقد أفشى السرّ.. فخطفت روحه الجنية!!»..
(أكتوبر ١٩٦٤)

عندما يورق الموت

انقضى الليل. انسحبت ظلمته من بطن الكون.. وحطت في صحن الدار. والنسوة أشباح. بقع من طين أسود محفوف بالزرقة. كلمات تتساقط في لوعة.. تتناثر تتكاثر تتلوى في ذعر.. وتصوت في سمع الصبح:
- يا راحلة عن دارنا لمَ ترحلين؟ أفتتركينا هكذا في محنة؟ الدار بعدك خاوية.. والشمس خنقت نفسها في جوفنا.. يا راحلة.. لمَ ترحلين؟! عودي إلى الدار الحزينة وابعثي فيها الأمل.. فلربما تخضر منك قلوبنا.
.. اليوم ترحل جدتي.. وبالأمس رحلت أمي المسكينة: لمَ ترحلين يا أم عني هكذا..؟! لمَ لمْ تحمليني في ضلوعك يومها؟.. لمَ تتركيني بينهم؟.. كم كنت أهوى أن أكون بجانبك.. كم كنت أعشق صدرك الملآن.. كم كنت أعشقه! رضعت من حلماته رحيق الحب والدنيا. دفنت في أعماقه روحي وأفراحي وهمّي وأحلامي وأيامي وندمي. يا لهذا الصدر من جبلين، من هرمين يحتضنان جدولا رفرافا بنور زاهر عاطر يا طالما دسست أنفي وشفتي بين دفتي ذلك الجدول.. فتهت عن الوجود عديدًا من الدهور.. لم أكن أشعر خلالها إلا بهدهدات كفك العريضة الحنونة، وهي تطبطب عليّ في سرعة محمومة بسخونة الحب.. وتضغطين وكأن أحشاءك لن تستريح إلا بعد أن تحتويني بداخلها من جديد. ولعلك لم تكوني في تلك اللحظة يا أمي الحبيبة لتدركي أنني لم أكن لأشعر بأني خارج الأحشاء منك؟.. لعلك لم يدر بخلدك أنني ما كنت لأحس بضجيج الحياة إلا بعد أن أنسلخ من صدرك لفترة ما لسبب من الأسباب. وما كان أكثرها وأشقاها من أسباب. فلطالما نزعتني عن صدرك بعنف جبار وقسوة ووحشة وكأني بها كانت تغرر بي. إذ تنزعني عن صدرك شيئًا فشيئًا، لتحول بيني وبينه في النهاية إلى الأبد وفي ذات الوقت تستقيني مرارة اللوعة ولهيب الحسرة والشوق والحرمان على مهل. وها هي الحسرة تستقر الآن في قاع بطني.. آه يا للهب الفظيع يرتفع أواره الآن في أعماقي.. آه.. ه.. يا أمي.. آ.. ه.. يا أمي.
أنا رحت بلاد الغربة يا أمي كيما أصنع من نفسي شيئًا.. كيما أشعل مصباحًا يهديني لمصيري.. كيما أرتاح وأرجع للصدر المفتوح.. كيما أتسلق قمته المرتفعة ـ وفي قدمي سلاسل من أوجاع وموانع ترسخ بي وترشقني، لا تزرعني بل ترشقني في مكاني وفي القدمين العاجزتين بريق حلو يتصاعد دومًا كالنظرة تهفو تتطلع لشموخ الأبدية، ترنو لصعود مزدهر بالخضرة، تحملني النظرة وتطير وتحط على صدرك يا أمي، تنصب وتقيم على صدرك عرسي، تجلسني في زهو فوق الجبلين.. مرفوع الهامة والعينين، أشقى للأرض رحيقك يا أمي كيما نقطف زهرتها.
رحت بلاد الغربة يا أمي نهشتني الغربان، اقتطفت روحي وحماسي.. قتلتني فرجعت إليك ولم أصنع من نفسي شيئًا. عدت إلى صدرك مشتاقًا ملهوفًا كغريق يهفو لشراع أبيض، فلعلي ألقي فوق الجبلين حياتي، لكني يا حسرة.. لم أجد الصدر المفتوح أين مكاني فوقه؟ هل ضاق الصدر بأحزاني؟.. فعلًا.. قد ضاق الصدر بأحزاني، امتلأ بأحزانك يا أمي. قد مات أبي من فرط الحب.. ضحك فمات هل راح الجنة؟
كنت تقولين وفي عينيك لهيب: ذهب إلى الجنة حيث تذكره الله تعالى، والآن من هذا القادم نحو الدار؟ من هذا الزائر يتفضل ويؤانسنا ليل نهار؟ من هذا الغازي قلبك يا أمي؟ من؟ من هذا الدائب في ترديد الكلمات الطنانة؟ من هذا القائل إن الشمس ستشرق خضراء وتظلل سعف النخيل؟ من هذا الواثب في الأحلام؟ الواعد بالأحلام..! الشارب من غثيات الدنيا أحقر ما في الكأس. إني أكرهه، أمقته، أمقت ظله، أمقت صوته.. أمقت كل الدنيا إذ تهتف باسمه.
قلت لجدتي المسكينة:

- مَن هذا الضيف..؟
قالت جدتي الطيبة:
- هو صاحب بيت، قد أصبح صاحب بيت منذ الآن!
قلت:
- وكيف؟
قالت والدمع يبلل نبرات الصوت:
- الدار حزينة يا طفلي.. تحتاج لفرع يورق ويظلل هامتها ويظللنا.. ويدوس الأرض بقدم خضراء..
قلت:
- الدار مليئة بالجدعان فما بالك يا جدتي الطيبة المسكينة، تأتينا برجل لا يعرفنا ولا نعرفه.. يا للعار.. تأتين لأمي بالعاشق الشارب أحقر شهوات الإنسان؟
انخرس الصوت على شفتيها فانخرس على شفتي. قالت بعد هنيهة..:
- يا بني لا تكثر أسئلتك..
قلت:
- أجيبيني.. لن أهدأ حتى تعطيني جوابًا.
قالت:
- يا بني لست المسئولة.. اسأل أمك.
وسألتك يا أمي.. فالتمعت في عينيك مهانة.. وغضضت البصر ولم تعطيني أي جواب.. ما هذا السر الغامض؟ ما هذا يا أمي؟ ومن هذا؟
انطلقت عبراتك يا أمي وأخذتيني في حضنك.. وحكاية هذا الغول تلف الليل على شفتيك..
- قد خطفك يا أمي.. جذبك من شعرك.. ليريك القصر المسحور، والجنة ذات الأعمدة الخضراء وذات فروع سكرى بكئوس الطمي ونفوس تسطع داخلها شمس ذهبية - ست الحسن هناك ما زالت تنتظر - حسن - ليجيء يخلصها من فك الغول - كانت أمنيتي أن أذهب لأخلصها، لكن يا أمي أدركت بأني ما زلت صغيرًا، فالغول القابع في حضنك غول جبّار.. آ..ه يا أمي.. من يشرب من لبنك ويخلصك.. آ.. ه لو أني وضعتك ما يكفيني. لو أني ظللت أشم عبيرك من صغري.. لكن يا حسرة.. لم نرضع غير الحرمان.
يا غول يا ساجن ست الحسن، رحماك بست الحسن، فهذا غول آخر يسجن أمي.. أمي ماتت بين يديه.. ماتت.. ودفناها.. ورجعنا نتحسس في جوف الدار ونبحث عن شيء نحييه، ليس هناك سوى جدتنا.. والغول يعود ويتمدد في جوف الدار.. يلقي اللوم علينا:
- أنتم يا أبناء الدار أهملتم في شأن الأم، أنتم يا أبناء الأب المارق أغفلتم ري الأرض وأضعتم ريع الأرض.. فدعوها.. ودعوني أتصرف فيها حتى أحييها..!
بالله عليك ها نحن تركناك فماذا فعلت؟ هل نتكلم؟ من جعل الأرض حريقًا؟ من سحب الخضرة من سعف النخيل؟ من أغلق باب الدار على الغربان..؟ هذي غربانك ما زالت تنعق في جوف الدار، ها هي بوماتك تمتص هواء الدنيا.. تحرسها شياطينك، تحميها وتنميها.. من ذاك الفاعل هذا؟ من؟ هل تتكلم؟! كان الأجدر أن تقتل نفسك، أو تتوارى - ما دمت حريصًا أن تحيا في مجتمع الغربان، ما دمت تواري سوآتك الواضحة وضوح الخجل على خد العذراء ست الحسن. هل تتكلم؟ وتقول بأننا أهملنا..؟ أهملنا ماذا؟! أهملناك؟.. أم أهملنا الحق الضائع بين يديك.. أم أهملنا الشمس

المنطفئة، المحتجبة خلف ذراعيك؟ أم أهملنا أمي وتركناها تتلظى تحت لواءك، تتلوى، وتزم الشفتين لتكظم غيظ سنين الحسرة في نبرك. كانت يا حسرة تخشى كلمات الناس.. وتتحاشى أي فضيحة.. كانت في قفصك صارخة الصمت.. طرحتها السوداء تندب حظ هواها الأعمى، كانت فاقدة الحول.. لا تدري ماذا تفعل والغربان تبدد ثمر النخيل وتبددنا.
هل تقصد ـ يا غولًا هبط على مأمنا وانقض على أمي أننا أهملنا في هذا كله؟ أم ماذا تقصد..؟! لا تلق الذنب علينا.. لا تطمس في الأذهان خطيئتك الكبرى: ماتت أمي ـ احترقت في صهد الأرض العطشانة، أكلتها الغربان، نهشت جثتها الغربان. هل تنكر هذا؟ هل تنكره؟ أم أنك لا تذكر هذه الأشياء؟
أفلا تذكرني طفلًا مذعورًا يتخبط في صرخات الليل وتتقاذفه عديد من نسوة والجدة تمسك جلبابي وتحيط بألبابي، وتحاول جاهدة أن تحجب عنّي الرؤية وأنا أنثال دموعًا حارقة.. صامتة.. لكن كهدير الماء يصب على المأتم، ويولد في الجو شرارا يجتاح ضجيج الحزن الكاذب، ويغطي صرخات النسوة..؟ أنسيت.. ساعة هبطت كل النسوة وركعن أمامك يرجونك، دعه يراها. أنسيت الصورة؟ صورتك الملعونة لحظتها. حين ضربت الأرض بقدم مخبولة، وأمرت بوضعي في القاعة والإغلاق عليّ.. حتى ندفنها؟!
ودفنتم إيّاها رغمًا عني.. ذهبت أمي.. تركتني أجتر أسايَ وحكاية ست الحسن والغول السجان.
قولي يا جدتي الطيبة:
- ماذا فعلت ست الحسن..؟
تتثاءب جدتنا، وتملس بالكلمات على عيني:
- ست الحسن هناك ما زالت في القصر المسحور. القبر المهجور.. تنتظر الشاطر ليخلصها من فك الغول. قالت هذا بالأمس واليوم تذكرها الله.. فماتت.. قالته وماتت.. آ.. ه. كان حديثك يا جدتي المسكينة.. سحرًا يطربني في النوم ويجعلني أتقابل مع ست الحسن وبنت السلطان.. أطرح بينهما أملي مرهونًا بفؤادي.
- من تنجح في توصيلي للجنة.. تأخذ قلبي وحياتي، ونعيش سويًّا في رغد، إذ إني سأقابل أمي في الجنة. وسأجد هناك على الجبلين، على الهرمين مكانًا يأوينا.. يا ست الحسن.. ويعطينا عشًّا نبنيه.
شدتني بنت السلطان.. جرتني من ثوبي الريفي الواسع، وأرتني قصورًا وعبيدًا، ورجالًا ليسوا كرجال البلدة، ليسوا من طين بل من حلوى، وأرتني أرضًا ليست من أرض البلدة، ليست من خضرة بل من حجر ورخام، وأرتني زحمة لم أعرف فيها مخلوقًا أيًّا كان.. وأرتني وأرتني حتى صرخت من الغربة وطلبت الجنة.. وطلبت السير إليها ممتطيًا قدمي ـ إن عزّ عليّ الركب ـ وعرضت حياتي ثمنًا لهواها لو ألقاها.
ضحكت بنت السلطان، وقالت: يا مخبول، يا متأخر، تلك هي الجنة.. فامرح فيها كيف تشاء، اشرب، كل، البس، ارقص، غنّ، مُر، انهِ، افعل ما يحلو لك، فالدنيا ملكك. فأما وسعتك الدنيا، فانظر في عيني، لتطل على دنيا أخرى.. ادخلها وارفع فيها واستسلم، ولسوف أغطيك بجفني، أو ادخل في حضني، وتمدد، وتمرغ، واقس عليّ، اسحقني لو شئت، فتتني، اجعل ثقلك يهبط بي في جوف الأرض ماذا تبغي؟ قُل، في التو تكون البغية بين يديك. لن أفعل أكثر من ضغطة أو حكة فص، تنقلب الدنيا لحظتها وتجيء وتركع وتقبل قدميك. ماذا تبقى؟ ماذا يا فلاح الشؤم، يا ناشفًا يا عملاقا حافي القدمين، يا راضع لبن الأرض الأم، وساقيها دم ذراعيك.. قل لي، أتكون دماؤك قد خاوت رحم الأرض.. فلا يستسلم أحدهما إلا للآخر؟

جمعت حيائي ووفائي للعهد الغالي ونطقت أخيرًا، قلت:
- يا بنت السلطان، يا أحلى ما أنتجته الجان، اصنعي معروفًا ودعيني.. ما دام البر الثاني ما زال بعيدًا، ما دام هناك على مرمى الأبعاد. أعرف أني لن أرجع للبيت فلا توجد أمي فيه.. لكن لا بد وأن أتحرك في جهة ما، وما دمت تحركت فلا بد وأن ألقاها.. ألقى أمي، والجنة، فالجنة مثواها ـ قال الشيخ يصلي عليها، والجنة مأواها ـ قالت جدتي مؤكدة لي.
انشرخ الجو، في وجهي طق شرار عينا بنت السلطان حمم، كأن المردة قد وجدت في التو وأشاعت في الجو لهيبًا. ياللأهوال المحدقة بأهل الأرض وبي. لفتني دوامة، رفعتني في الجو ودارت بي وانخرطت في الدوران، قذفتني فوق الأرض حطامًا.
فتحول ظهر الأرض، وانقلب ذراعا ممدودة تتلقف رأسي، وإذا بي مسنود الرأس، يمتص وجودي دفء حلو يمزجني بطراوة صدر لم أعهدها إلا في حضنك يا أمي. اتفتحت عيناي، ومن بينهما طار بريق حلو أحمر، كبريق الصهد المتصاعد من جوف الأرض العطشانة. انطفأ الصهد بشعاع هبط على بصري كشعاع الماء المتدفق من أعلى الجدول. كانت نظراتك يا ست الحسن.. نظرات غسلتني من كل هموم الدنيا. فشربت الروح.. آه.. يا ست الحسن.. ما هذا الخد الشارب من طمي النيل؟ ما هذي الخضرة في عينيك..؟ رسيني يا ست الحسن.. رسيني على خدك.. ومريني أن أطوي شراعي.. وخذيني في حضنك.. ضميني إليك..ضمي.. ضمي يا ست الحسن.. الجنة قدّامي يا ست الحسن.. الجنة في قلبك.. أعطيني المفتاح.. لا.. قلبك يا ست الحسن لا يألف مفتاحًا ما.. وسأفتحه.. أنفاسي ستذيب الأقفال.. أولا.. قلبك يا ست الحسن غصن أخضر طاب على أمه.. وسأقطف منه فروعًا أزرعها في كل قلوب الأرض.
آه؟ ماذا أسمع؟ يقترب زئير ماذا؟ الدنيا تهتز.. تتهاوى الأشياء على سطح الأرض، وتردد أوراق الأشجار نحيبا وهتافا.. تتهامس في ذعر.. الغول يمر..
- ما بالك يا ست الحسن.. ما بالك واجفة القلب؟
ارتعدت ست الحسن، لطمت خديها، قالت:
- يا ويلي.. أين أداريك.. أين؟ لا مهرب منه.. لا يخفى في الدنيا مكان عن عينيه قلت:
- دعيني يا ست الحسن، فلسوف أخلصك.. الساعة سوف أخلصك. سطع الحب على شفتيها.. ربتت شفتاها على صدري. قالت في لوعة: اهرب يا طفلي.. اهرب خيرًا لك. قلت وقد بدأت ترجفني رعدة:
- أنا يا ست الحسن شجاع، لا أخشى شيئًا حتى المارد.
بَسم العطف على شفتيها، في حين أخذت تتوارى عن بصري، وتشير بكفيها وتقول:
- لا تستسلم لشجاعتك الحمقاء.. في هذه الحالة يا طفل لا تعتبر شجاعًا بل مجنونًا. اهرب وانج بجلدك. فاهتزت بي الأرض، وصرخت بفزع ومرارة:
- دليني يا ست الحسن.. اهديني لمكان الجنة. رجع صداها.. قال بحسرة:
- الجنة والغول؟ هل هذا معقول؟ فلتهدأ يا طفلي.. فأنا في القبر المجهول أنتظر خلاصي. لكن في كل الأحوال يا طفلي لا تحزن.. فخلاصي ـ أيًّا كان ـ سيكون ربيعًا.. ويخضر سعف النخل.
ارتفع زئير.. طقطق صوت كسر جنبات الكون. قالوا في همس مذعور:
- الغول تثاءب..
ناديت بأعلى صوتي:
- يا ست الحسن.. لا أعرف كيف أعود، ولا كيف أمر. قال الصوت يحذرني:

- جرد نفسك من أسلحتك وامضي بدلا من أن تنزع منك وتطرد من دنيا الأحياء، وارم سلامك قبل كلامك.. وابعث لأمك ألف سلام.

* * *

يا راحلة عن دارينا لمَ ترحلين؟ يا أم أهل الدار يا أصل السبب.. يا من خدعت الأهل والأحباب بالنوم الطويل.. يا من نسيت قلوبهم وحنينهم وأنينهم. ابعد عنها يا غول.. فالوليّة قلبها مقتول. وابعد عنها يا قاتل.. فالوليّة نعشها مائل.

.. يا إلهي.. لم يعد يوجد في هذه الدار من يهتم بي. ليس في هذه الدار من يهتم بي.. فاهتم بي أنت وتذكرني. تذكرني فلم يعد في الدار سوى الغربان، والبوم عشش في نوافذها. بوابة الدار واسعة، لكنها يا ألف حسرة مدهونة بالصدأ، ملطخة بالصديد، ولا طاقة لمخلوق بشري على فتحها، إنها لا تفتح إلا لجنّي ابن جنّي. كل من في الدار ميّت، وكل ما في الدار ميّت. واليوم وفي هذه اللحظة.. تتوقف روح الأشياء. جدعان العائلة يزفون الأرواح اليوم. جثة جدتي العجفاء يكفيها كفن ضيق.. لكن العائلة تكفنها بعريض الأثواب، فالجثة ليست جثتها، بل جثة أرواح الجدعان، واليوم ستدفن في القبر، تحملها جثة جدتنا. جدتنا ستروح الجنة بالطبع، لكن أرواح الجدعان، ماذا تفعل؟ إني لا أدري هل يمكن أن تذهب أرواح الناس إلى الجنة.. دون الأجساد؟

ما بقي سوى أجساد.. حتى أنظر.. أنظر يا إلهي.. ماذا يمكن أن تفعل هذه الأجساد، ها هي متكورة جنب الحائط تنتظر صلاة العصر وتنتظر الأكفان. جدعان البيت حجر قطع من طين من طوب، من طمي برك، من زفت، من قطران.. برءوس مائلة في ذلة، كالاستسلام، كحقارة كلب أجرب يتلقى الركل ويعوي ويجرر ساقيه، ليرتمي على كومة قش، أو ينقض على جيفة نتنة، ينسى فيها ألم الركل..

الجامع أذّن لصلاة العصر فانتفض الجميع وقاموا.. والتفوا حول النعش، وأنا أتسلل ما بين الأرجل:

- لا بد وأن أذهب لأشيّع جثتها، لأشيّع جثة أمي في جنتها.

الواعظ ملّس فوق النعش، وتغنى كلمات:

- كل الناس تذوق الموت.. لكن.. ما كل الناس تذوق الجنة.

هيا يا جدتنا.. امض لمصيرك ومصيرك مجهول.. في قلب مقابر قريتنا انتشر الجميع بطابور يبدأ من وسط القرية، انكفأ البعض على مقبرة الأم. انتفضت روح الفتى، وقف على مقربة منها، انشل الفأس ولم تهو فوق الأرض. بعُد الضارب بالفأس قليلًا. صرخ فتانا.. صرخ صراخًا شل الموكب والمنتشرين.. وانكفأ على الأرض يعانق شجرة، جذع أخضر ذو حزمة أفرع نبتت من أرض المدفن.

قال البعض: في هذه البقعة ترقد رأس الأم.

وقال الكل: يا للحكمة.. أرض رملية تنبت شجرة؟! لكن فتانا يتمطى، يصبح فجأة كالمارد.. كهرقل.. يفرد صدرًا يسع الكون ويسد طريق الطابور القادم بالموت. يبعث فيهم صوتًا كهدير الرعد:

- فلتقبل يا موت. أنت حقيقي والباقي زيف. أنت حقيقة كل الحقائق. أنت خلاص، وأنت أمل. أنت فناء وأنت حياة. وأنت ذبول وأنت أزهار. اسمعوا.. يا كل خلق الله يا أهل البلد، لا تقربوا هذا المكان. لن تقربوه.. ألا فلتسمعي يا من هناك في قبرك المهجور قصرك المسحور.. هذا خلاصك.. ها هو الموت يورق في قريتي.. ها هي أمي تطرح شجرة وتفتح ثقبًا على جنتي.. يا

أهل بلدتي، يا كبار ويا صغار.. يا نساء ويا رجال.. يا أجنّة في بطون الأمهات، يا بذور الزرع في أيدي الصبايا.. من ها هنا يبدأ التاريخ رحلته الجديدة ويبدأ الإنسان في صنع الحياة.. فلتدفنوا جدتي في مكان ما.. لا.. بل ذوّبوها في عروق الأرض.. ودعوها تزدهر.. ووالوها بالرعاية كل يوم، لكي تشربوا روح خلاصكم.. أما أنا فإني سأبقى هنا.. فهذا خلاصي.. فإن ذات يوم مررتم هنا، ولم تجدوني في مكمني.. فقولوا بأني ذهبت هناك.. إلى جنتي، وإني هناك.. متربع على صدر أمي الحبيبة.

(١٩٦٤)

الخـــــــراز

ياما تحرقنا لمجيء الخراز، وترقبنا نداءه بصيحته المدوية المنغَّمة بنغم شجي وكلام مضغوم لا نفهم منه سوى كلمة: «أصلح وا.. أصـ.. ا.. لـ.. ح». لكننا إن سمعناها عرفنا في الحال أنه ذلك الرجل العجوز الطويل النحيل ذو اللحية الطويلة في لون الحناء والكامل الأسنان رغم انحناء كاهله تحت ستين من السنين قضاها جائلا في طرقات جميع أنحاء بلاد البر متربة ومرصوفة حاملا ذلك الصندوق الخشبي الثقيل المعلق في كتفه بسير من الجلد السميك، يسبقه نداؤه، حيث يعدل هامته رافعا كفه جوار أذنه وفمه، مطلقا في الفضاء صوته الجميل، رغم خشونته وسذاجته يحفل بجلجلة مراجيح العيد وصهللة السلاميات والنايات والدفوف في الموالد، لكن يا لحلاوة كل ذلك بل ويا للحزن الذي فيها، حزن حلو حلاوة!
من فوق الألم ومن فوق الزمن وغدره، بل ومن فوق هضبة الكرة الأرضية يطلع صوته علينا فجأة كأنه أول صوت صاح على الأرض وسط الغابات وسفوح الجبال، يجذب كل الناس في بلدتنا رجالا ونساء كبارا وصغارا يحبون الفرجة عليه وهو سارح في البلدة يغني نداءه الحزين الضاحك الجاذب الذي لا تبين منه سوى كلمة: أصلـ..ا.. ا.. ح». إذ تغيب هذه الأحرف الأخيرة في أفق الحارة.
يقول «فرحات الخياط» معلقا في إعجاب:
ـ «صوته هذا يا جماعة ليس صوته! صدقوني يا رجال! هذا صوت من آخر بلاد الدنيا جاء به الرجل معه! لعله سارقه! لو كان هذا الرجل عنده شيء من المفهومية لاشتغل مغنيا كبيرا في الأسطوانات!».
ويعلق «أبو يوسف» الصياد الجالس فوق مصطبته المقابلة لمصطبة دكان الخياط:
ـ «لو قرأ القرآن لغطى على الشيخ محمد رفعت!».
الود ودهن ـ نساء بلدتنا ـ أن يكافئنه على جميلين: جميل صوته وجميل قدومه أخيرا بعد أن طالت غيبته شهورا طويلة قضاها جائلا في قرى أخرى وعزب بعيدة فيها قصور سادة لديهم مرمات كبيرة تملأ العين يشتغل فيها جمعة بحالها، يلحم خلالها أشياء كثيرة لا تخطر على بال، يستحق من أجلها الأكل والشرب والنوم على أحسن وضع، وعند انصرافه يتقاضى عرقه.
هكذا هو لا يكف عن الحكي طالما هو قاعد في شغل: فالأمر في النهاية أن هناك من يفهم قيمته أفضل منا بكثير ويعطيه حقه ومستحقه.. المسألة ليست مسألة فلوس خل بالك، إنما هي مسألة تقدير ومفهومية من البني آدم للبني آدم.. أصحاب المفهومية يظهر عليهم في الحال تقديرهم لصنعته! وصنعته هذه عفية جبارة ليست تلين لكل من أمسك بالمخراز من صبيان الصنعة اللفافين! هذا هو السبب ـ خل بالكم ـ في ندرة أهل هذه الصنعة!.. هل يخرج من يد أحدكم أن يعيد الأمل في شيء صار في حكم المنتهي؟ شيء ثمين مثلا وغال عليك وله معزة، إذ هو بضعة منك ومن أيامك كأنك أخ شقيق للطبق الذي تأكل فيه، وللكوب الذي تشرب منه، وللزهرية التي تضع فيها وردك، أو لرقعة من رخام عليها معول كبير، لمرآة غالية.. أنتم طبعا تعرفون أن كسر شيء من هذه الأشياء لا يمر على النفس سهلا. لا، هناك من ينشرخ قلبه إذا انشرخ له شيء من هذه الأشياء بله ينكسر.. منبع الصدمة في القلب إحساسك بأنك فقدت هذا الشيء العزيز عليك وما أكثر ما للمعزَّة من أسباب.. صنعتي إذن يا أولادي هي مداواة جروح القلوب، لا تستهزئ بي أنت وهو أيها الشبان الصغار وإلا فدعني أجرب الأمر معك: هات ساعة جيبك هذه لأكسر لك زجاجتها، أو دعها تنكسر وشف كيف يكون الزعل زعلك وانقباض نفسك، ساعتها ستكون رؤيتي بالنسبة لك حلما، وإذ يوفقني الله في لحم الكسر ولأم الجرح ففي الحال يعتريك الفرح.

على نواصي الحواري وفي أعماقها تترقب النسوان صوته. واضعات في اعتبارهن أن نسوان الدور التي على النواصي سوف يستقبلنه ويستوقفنه طويلا، وبخاصة دور العائلات الكبيرة التي لديها أطقم كثيرة من الأطباق الصيني والفضيات، وبالأخص من تكثر ضيوفهم ومعازيمهم بحكم اتساع علاقاتهم أو قوة أرومتهم، كذلك من تكثر في دورهم الشياطين الصغار ـ أقصد الأطفال الأشقياء. هؤلاء وأولئك، ومعظم العائلات في الواقع، لا بد أن يقدموا الطعام لضيوفهم في أطباق من الصيني الأصلي، حيث تتوافد على المائدة بكافة الأحجام والأشكال بلونها السن فيلي الجميل المعتق والزهري البهيج اللامع، من دائرية مفرطحة إلى دائرية مقعرة إلى ما يشبه القارب كل طبق له طبق وحتى فنجان الشاي أو القهوة له طبق يقعد فوقه، وكذلك سلطانية «الشوربة»، ناهيك عن أطقم الشربات بشفاشقها وأكوابها المستطيلة والمنبعجة والمضلعة بألوانها الوردية الزاهية..

غير هذا في بلدتنا يعد عارا لا يحتمله سوى أفقر الفقراء الذين يأكلون في طاسات أو جفنات من الفخار أو بالكثير أطباق من الصاج الملون والألمونيوم إن كانوا من فئة أهل الحرف الذين تحضر الفلوس بأيديهم معظم أيام السنة..

أطقم الصيني والفضيات أمرٌ، بل همٌّ ينتظر كل عروس في بلدتنا. تحمله أمها يوم مولدها، فتروح تدخر له بأي شكل وبأي وسيلة نفقات جهاز ابنتها وشوارها وعلى رأسه طاقم الصيني والفضيات إذ إن ثمنه في العادة مرتفع لأن العروس لا يصح مطلقا أن تدخل بدونه مهما كانت فقيرة، ثم إن الغش فيه سهل ومنتشر، وليس يقدر على كشف الأصلي من التقليد سوى امرأة من بيت، من عائلة مستريحة منذ زمن طويل وبنت ناس طيبين خبرت الأطباق الصيني في بيت أبيها وتعلمت كيف تعرفه بلمسة يد بل بنظرة عين، وهو لا يباع إلا في دسوق البندر في محلات مشهورة جدا في كل القرى المجاورة يقصدها أكابر القوم عند تجهيز شوار عرائسهم، إذ تباع الأطقم كاملة غير منقوصة طبق الزبد حتى الملاحة ومن ربيبة الشوكة سكينتها الصغيرة إلى سكين الذبح والتقطيع والتخريط، ومعروف ثمنها كورقة البوستة، ولكن من ذا الذي يستطيع اقتحام هذه المحلات بكل جرأة ليقول: أرني هذا وأرني ذاك وينتقي على كيفه إلا القادرين على دفع كل شيء في الحال في جميع احتياجات العروس في وقت واحد!..

لكن الأمر لا يترك هكذا دائما، فدائما هناك من يتطوع بالبيع لغير القادرين بل يذهب لحد عندهم. فغير القادر لن يقدر بالطبع على زيارة المحل أصلا، وهو في نفس الوقت ـ هكذا يرى البعض من عباد الله الأذكياء ذكاء تجاريا كادحا ـ يستطيع أن يحصل على هذه البضاعة نفسها ولكن بشكل منظم خاضع لإمكاناته، إذ ما المانع أن أجيء لك بهذه البضاعة الثمينة نفسها لحد عندك نظير عرق تدفعه لي؟ أحلف لك اليمين مشفوعا بقراءة الفاتحة معا إننى اشتريته بكذا، ولكن بعد أن تكون قد وعدتني بإضافة مبلغ كذا نظير قيامي بشرائه بمالي الخاص والمجيء به إليك.. وإذا كان الطاقم غالي الثمن فوق طاقتك وطاقتي فما المانع أن أستقضيه لك جزءا جزءا قطعة فقطعة؟ إن الجزء أمره سهل: في هذه المرة جئت لك بطبق الغرف الكبير، في المرة القادمة يسهل ربنا وأجيء لك بستة أطباق غرف متوسطة.. وعلى كل حال فطبق الغرف الكبير وحده يسد نفعا كبيرا، لكن بمشيئة الله بإذن واحد أحد في يوم السوق المقبل سأجيء لك بستة متوسطين وستة صغار، على قد حملي يفرجها المولى ويكون معي ـ بالمرة ـ طاقم الملاعق والشوك..

هكذا يقول البائع السريح لأم العروس المنتظرة من زبائنه الكثيرات.. البائع السريح يعرف أسرار البيوت والعلائلات والقرابات أكثر مما يعرف الجيران عن جيرانهم رغم أنه من الغرباء السوقية ـ أي الذين يتجولون في الأسواق في القرى والبلدان ويتوغلون في أعماق الدور. البائع السريح

المتودك يعرف أخبار الفتيات اللائي هن على وش جواز، والمخطوبات، وسمعتهن جميعا. كثيرا ما يعمل ـ إلى جوار مهنة بيع الصيني والخردوات الدقيقة في شوار العروس ـ على القيام بدور الخاطبة.. وعن طريقه كم جاء خطاب من بلاد بعيدة لفتيات في بلدتنا.
هكذا كان «محمد بتاع الغوايش» البائع السريح الذي يقال إن أصله من البتانون منوفية، وهو رغم تجواله المتواصل في تراب السكك بركائبه تراه دائما نظيف الجلباب والوجه واللسان واليد، إلا من لطشة نسوانية خبيثة يشفع لها وضوحها السافر، إذ يقدر الرجال أنها تنتهي عند هذا الحد ولا تتجاوزه إلى محاولة العبث بأقدار نسائهم، وهم يعلمون أنهن يتعاملن مع هذا الرجل في غيبة منهم أحيانا، كالحاوي لا تفرغ كل أخراجه العديدة من كل مبهج يخلب اللب، من غوايش نايلون إلى أفرع وحلقان وخلاخيل ومشخللات من الذهب الفالصو المتقن ومناديل من حرير للتعصب وأخرى من حبر للتلفيع مع معدات شغل الترابيع أم أوية من ترتر وصدف وصوف على هيئة فل، ومن أزرار وتوكات وأحزمة وشرابات وسنتيانات وروائح وعطور تفضح وجوده على بعد حارات يحرص على زيارة زبائن له فيها، لكنه في العادة يتمركز عند أول بيت استوقفه، وفي العادة يستغيبه المنتظرون فيذهبون إليه.
أما الراسيات من النسوان فإنهن يرغمنه بصنعة لطافة على المجيء إليهن بكل فرشه كضيف على الشاي أو الغداء إن لزم، حيث يأخذن راحتهن في الفرجة والانتقاء، والوصول إلى أسعار في السر، لها لا شك ميزاتها عن أسعار العلن.. الغدوة في العادة سرها باتع في استخراج الخبيء من أخراجه وما عساه ـ لمكره ـ يكون ادخره لزبائن معينين لهم عليه حق العشم، وبخاصة أن الخرج الذي يحمل أطقم الصيني والأكواب والفضيات يفرغ بعد جولة واحدة فيتركه عرضة للرائي حتى يعرف من نفسه فلا يسأله هذا الطلب بدون إحراج وحلفان، في حين يكون قد أخفى بعض الأطباق الثمينة داخل أثواب الطرح والمناديل.. إلا أن الفطير المشلتت الذي سيأخذه معه لأولاده بعد غدائه كفيل بنثر كافة ما في الأخراج والعلب من محتويات.
«محمد بتاع الغوايش» أروب رغم أنه لم يصل إلى الخمسين من عمره بعد. إنما هكذا ابن السوق دائما، خصوصا إذا كان متودكا. لا بأس عنده من اصطناع مدخر ليصطنع التفريط فيه أمامك من أجل خاطر عيونك حتى تضع أنت في هذه العيون حصوة ملح تحدقها وتجعل همّ المعاملة سائغا.. وكسب الناس المهمين ـ في نظره ـ أغلى من كل شيء ومن أي فلوس، لكنه مع ذلك يلهف الفلوس بشهية للعد لا تنتهي، تظل راحة كفه مفتوحة متأهبة لفر الفلوس إليها دائما ولا يضعها في جيبه إلا بعد مناهدة شديدة يقتنع منها ألا فائدة في زيادة أخرى بعدها..
من مدة سنين كان يزور بلدتنا كل شهر مرة، ثم بات يزورها يوم السوق من كل أسبوع، ثم أصبح يزورها كل بضعة أيام خارج يوم السوق. بكثرة زياراته سهل على الأمهات مهمة تجهيز الصبايا بأطقم الصيني والفضيات. وقد أمنت له النسوان فأمن له الرجال فبات يؤامن النسوان على فلوس كبيرة يدفعنها له على فترات الحصاد حصادا إن أحب وفلوسا إن أراد.
كل شيء في شوار العروسة يمكن التهاون في حفظه أو حمله إلا طاقم الصيني بالذات فإنه أكثر الأشياء تدللا في الوجود، إننا لابد أن نلف كل قطعة وحدها ببطانة لينة تخينة من الورق أو القطن أو القش حين نرصه بعضه فوق بعض، ونرفعه بحرص ونضعه بثبات على المائدة أو تحت صنبور الغسيل، والرجفة تأخذنا مقدما إذا تفلت من يدينا عفوا..
العروس منذ أن تدخل على زوجها بشوارها يكون أول ما تبرزه لعين الزوار من الشوار هو طاقم الصيني والفضيات، رغم أنه قد شبع من الفرجة عليه وهو في دار أبيها، حيث عرضته أمها على

نساء كثيرات من جيرانها وأقاربها المقربات واستطلعت رأيهن فيه وفي ثمنه بالضبط فلمسنه وقلبنه بين أيديهن عشرات المرات، وتلقت الأطباق والفناجين وأطقم الشربات صلوات على النبي بعدد كل مليم دفع فيها. إنما، ما أمتع أن تقدم العروس لزوجها فطور البيض المقلي والجبنة القريش في أطباق من الصيني، والشاي باللبن في فناجين من الصيني بدلا من الكوب الزنك. يظل العروسان ينعمان بلمس الصيني والشعور بفخفخة العز حتى لو كان الطعام من الطبيخ القرديحي أو الباذنجان المقلي. فإذا ما أنجبا أولادا يتحركون على الأرض يحين موعد جمع الصيني وتخزينه في دولاب الفضيات الثابت دائما في قائمة شوار العروس حتى لو لم يكن موجودا من الأصل، يظل هكذا في دولابه منظرا جميلا لا يخرج إلا في مناسبة احتفال أو عزومة ضيف من خارج البلدة، ويكتفي أهل الدار باستخدام الأطباق الصاج الملونة والأكواب الزنك والكيزان.
في دولاب الفضيات دائما أكثر من طبق وأكثر من كوب مكسور أو مشروخ يحتفظ به قطعة قطعة في انتظار مجيء الخراز .. بعض النساء الواعيات الفقيرات يتمادين في تخزين الصيني والإمعان في عدم استعماله حتى تكبر ابنتها فيكون جزءا من شوارها بدولابه نفسه وربما بدولاب ملابسها هي أيضا، فليس من الغضاضة أن يكون بيت أب العيال بدون دولاب ولكن من العار أن تدخل العروس على زوجها بدون دولاب للملابس يشغل مكانا كبيرا.. وعند انتقال الشوار من دار أبيها إلى دار عريسها ينفك إلى قطع كثيرة يحملها صبيان كثيرون فيطول بذلك الموكب الطريف الذي يحمل شوار كل عروس، إذ يتكون من الجمال والبغال والحمير والصبيان والفتيات والنساء العجائز، كل يحمل شيئا من جهاز الشوار.. أما رهط العجائز ففي مؤخرة الموكب يحملن الأسبتة المعبأ فيها أطقم الصيني والفضيات وما يسمى بعشاء العروس وهو كمية من الأرز والقمح والطيور المذبوحة والسمن والبقول تكفي لأن يعيش العروسان عاما كاملا بدون احتياج لأي شيء.
على أن العرائس في العادة أكثر تشاؤما من سيرة الخراز، فهن لا يحببن أن يبدأن حياتهن الزوجية ببشرة الخراز قبل أن يفرحن بجدة الصيني على حاله، لكنهن مايلبثن ـ صاغرات ـ أن يسألن عن مجيء الخراز.
ما أن يتسلل صوته قادما حتى يكن في انتظاره بلهفة وفرح. تقدم له الواحدة منهن حفنة من الهشيم والشطفات، يبدو من المستحيل على أي مخلوق مهما عظم سحره أن يعيد هذا الهشيم إلى سابق عهده طبقا أو فنجانا أو زهرية ورد أو مكحلة أو مصباحا من البللور الثمين. لكن الخراز ينظر فيه مبتسما في تحد غامض ويقول:
ـ «دهده! دهده! حتدفعي كام على كده؟! دا الواحد يشتري طبق جديد أحسن وأرخص! بدال وجع القلب ده!».
تصيح فيه المرأة مشوحة في ود:
ـ «منين يا حسرة! فشر! هو فيه منه دلوقت! ده صيني من الأصلي بتاع زمان يا عم الحاج ما عادش فيه منه!».
يقول لها قبل أن يجلس:
ـ «بس ده حيتكلف! ده عاوز له نص يوم شغل وجايز ما ينفعش!».
تنزعج المرأة تخبط على صدرها:
ـ «لا والنبي! اعمل معروف الحمه بأي شكل! أحسن ده عزيز علي قوي! ده أنت ما تعرفش فرحته كانت قد إيه يوم ما جاني!».
ثم تضيف كأنها تضحي من أجله:

- «حاديلك تعريفة بحاله!»
هو أخبث منها بالطبع، يقول:
- «حاخد واحد بأربعة!».
- «حرام عليك ده الواحد بأربعة في حنك سبع».
- «هو فيه سبع أسبع مني؟».
- «ربنا يطرح فيك البركة».
ثم تضحك..
- «تدفعي تلاتة تعريفة؟».
- «التعريفة واديلك تلات بيضات ورغيفين».
- «ما تخلي التعريفة قرش صاغ».
- «النبي هو اللي حيلتي».
- «ماشي يا ستي».
ينزع السير الجلدي عن كتفه، يضع الصندوق على الأرض يتقرفص أمامه يفتحه يستخرج عددا من المخارز كالأقلام ذات أسنان حادة رفيعة وتخينة، يستخرج علبة شيء كالغراء، ومطرقة خفيفة ولفة أسلاك رفيعة وعلبة كبسولات صغيرة، وشيئا يشبه قوس الرباب له ما يشبه الوتر المشدود على القوس، يجيء بيد معدنية مستطيلة بداخلها قلب متحرك، يجيء بالمخراز الرفيع السن يلبسه في هذه اليد، يلف الوتر حول هذه اليد، يثبت سن المخراز على رقعة الطبق المكسورة ويبدأ في تحريك القوس كمن يعزف على الرباب ويد المخراز تنبرم حول نفسها بسرعة هائلة حتى تثقب الرقعة، يجيء بزميلة لها، يقيسها بها يتأكد أن هذه الشطفة - لا غيرها - هي الجزء المفصول عن هذا الجزء بدليل أن شفة الشطفة رست على المشطوفة منها وكملتها، حينئذ يخرمها، يدهن الشفتين بمادة لا صقة من العلبة، يلصق الشفتين بعضهما ببعض برفق، يمرر سلكا رفيعا من الثقب إلى الثقب المجاور فيحزم اللحام تحزيما محكما يبدو السلك فيه كأنه حلية مقصودة لذاتها. هكذا يفعل ببقية الكسور حتى يستوي الطبق في يديه بعد دقائق وقد استعاد وضعه الأول. ما أن تراه صاحبته حتى يدب الفرح فيها فيشمل كل كيانها، إنها لفرحة عظيمة تلك التي يحسها المرء حين يستعيد شيئا كان قد صرف الأمل فيه، حتى ولو كان مجرد تجميع شمل طبق مكسور.
وكنا حتى وقت قريب لا نلح في طلب الخراز، بفضل حرص أمي وعمتي «فرح» على الصيني.. عمتي بحكم تقديرها لقيمة الصيني وأهمية وجوده في بيوت الناس الطيبين، وأمي بحكم تمرسها على التعامل مع الصيني الفاخر منذ طفولتها في السراية التي تربت فيها، وكنت أكتفي بالفرجة عليه فحسب. أما اليوم - ومنذ وقت طويل مضى - صرنا أكثر الناس إلحاحا في طلب الخراز، وصارت أمي توصيني بأنني إذا قابلته في أي مكان في البلدة لا بد أن أجيء به إلى دارنا. غير أنني لم أكن أراه مطلقا وكنت ألاحظ أن الناس يسألون عنه بكثرة. ولم نكن نعرف لماذا اختفى..
غير أنني كنت أعرف أن مجيئه بالنسبة لنا قد صار أمرا ضروريا. فمجيئه سيحل كثيرا من المشكلات الناجمة في دارنا منذ أشهر طويلة مضت، بين أبي وعمتي «فرح» من ناحية، وبين عمتي «فرح» وأمي «سعادات» من ناحية ثانية، وبين أبي وأمي من ناحية جوانية، وبين أبي (مسكين) وبين حماته جدتي «زنوبة عمراية» من ناحية برانية وما أدراك ما «زنوبة عمراية»..
كل شيء في نظر أبي يهون إلا أن يقع في سوء تفاهم مع «زنوبة عمراية»، تلك التي لا يرى منها - مع ذلك - إلا كل توقير وكل معزة كما يحلو لها أن تقول له دائما: إذ هو زوج ابنتها الوحيدة

الحيلة، التي لم تعطها الدنيا سواها بعد تعب ودوخان. صحيح أن أبي معلم في مدرسة البلدة الإلزامية ويلبس البدلة والطربوش كالبكوات سواء بسواء ومثلهم عنده شمسية تقيه حر الطريق من المدرسة للدار، ولكن «زنوبة عمراية» ـ مع احترامها لطرطور أبي ـ أي طربوشه ـ لا تزال تعتقد أن أحدا في الدنيا لا يليق بابنتها وإنما هي ـ «زنوبةعمراية» ـ زوَّجتها لأبي بفعل القسمة والنصيب فحسب. وأبي يعرف هذا تمام المعرفة، وكلما سمعها تقوله في بساطة يبتسم ابتسامة بشوشة تغزو كل وجهه المفلطح الشاهق البياض، يخفض رأسه مشيرا بأصبعه إلى صدره قائلا:
ـ «فعلا يا حماتي! حتى أنا نفسي!».
فيتفتت في سمع الكون هدير ضحك سخن غني كصوت دقات جرس الكنيسة يتكسر متدافعا.. ذلك هو ضحكها بصوتها ذي النبرة النوبية المجلجلة المصلصلة، في حين ينكمش وجهها الصغير الأسمر ككرة شراب مليئة بالرقع شبعت من الوقوع في الخرارة والتقافز على أكوام الجِلّة والسباخ. لكنك إذا اقتربت منه تجده يا للدهشة نظيفا يلمع كأنما بختم ربه لم تظلله غبارات بعد. يضيع وجهها ذاك في جسد ضامر لا يبدو منه سوى الطرحة الحبر السوداء فكأن «زنوبة عمراية» كلها خيال في خيال.. هي أيضا تظن أن لها وجها ينبغي أن تداريه عند الضحك من فرط الحياء، فإذا هي قد بسطت عليه كفها المضمومة الأصابع قائلة بنفس الصوت الحاد المجلجل في حياء:
ـ «يوه! الله يجازيك! يا راجل أنا ما أقصدش! هو أنت لو ماكنتش مليت دماغي ودخلت قلبي كنت سلمتها لك؟! دانا بس قصدي أقول لك يعني عن معزتها عندي!».
ـ ينفشخ حنك أبي على آخره،يهز رأسه في توقير شديد:
ـ «مانا عارف يا حماتي! عارف وحق كتاب الله! لكنني صادق في قولي أيضا وحق كتاب الله! قصدي أن ابنتك سعادات تستاهل كل خير! وهي في عيني وقلبي على الدوام! وأنت أيضا على رأسي!».
يتأكد لي. أن أبي غير صادق فيما قال، إذ إنه، وأقربها ليلة أمس، ظل يشتم أمي ويسبخها ويوبخها نصف ليلة كاملة، وهي لا ترد عليه مطلقا ولا تأبه بشتائمه إذ هي في الأصل ملبوخة في العراك مع عمتي «فرح» وفي الزعيق وانتقاء ألفاظ المَعْيَرَة وعبارات المكايدة، ردا على مدافع عمتي «فرح» التي حباها الله بخزين لا ينفد من ألفاظ حارقة تطس الوجه بالنار ولو على بعد قاعتين هما قاعتها وقاعة خزين المعاش وحوش الفرن ليقتحم على أمي باب غرفتها في آخر الجزء الأنيق من الدار بجوار المندرتين المتقابلتين يفصل بينهما بهو كبير فيه كنب بلدي منجد وكراسي وترابيزة وسط برخامة بيضاوية الشكل وأرجل مقوسة مشغولة بالمخرطة، وفيه أيضا دولاب الفضيات في مواجهة الداخل من الباب مباشرة.
العراك والزعيق والردح يعلو حتى يغرق كرامة أبي ويدهورها، يشخط في أمي أولا في رصانة ووقار شديدين:
ـ «اخرسي يا مرة!»..
فيبدو أنها لم تسمع، وتواصل الرد على عمتي «فرح»، فيصيح أبي هذه المرة بغلظة وخشونة:
ـ «اخرسي يا مرة وخشي جوه!»..
فتلفت وجهها عن باب عمتي «فرح» وترشق أبي بنظرة سريعة متسائلة تكاد تقول: بتكلمني؟.. حينئذ تكون «فرح» قد أرسلت عبر الحوش فالبهو كلمة لم يسمعها أحد ولم يتبينها أحد سوى أمي،

التي تستدير في الحال في فتحة باب قاعتنا صائحة برد مناسب ربما أصاب أبي رذاذ منه. ينفلت عياره تماما، يأخذ في الجعير والانتفاض كالثور الذبيح:
ـ «اخرسي يا مرة قلت لك! اتلمي وخشي جوه! يا مرة يا بنت ديك الكلب! أصلك ربابة مرة! اتفوه عليك وعلى ربايتك!».
ثم يبدو عليه الحرج فجأة، يكتشف ـ لا بد ـ أنه قد صار هو وعمتي «فرح» يردحان لأمي «سعادات» الوحدانية الغلبانة في هذه الدار. يتجه داخل القاعة مشمئزا مستنفرا، ينظر هنا وهناك تحت السرير ذي العمدان الصفراء وفوق البوريه الكبير ذي المرآة حتى يعثر على الخيزرانة التي يؤدب بها العيال في المدرسة، إن لم يجدها فالبوصة أم عوجاية أنفع.
تكون أمي المسكينة قد اندمجت في العراك والردح بانفعال خارق مدمر كانفعال العبيد السود صارت تشوح وتتعزرن، وتجرأت فخطت خارج عتبة القاعة موهمة عمتي «فرح» أنها لن تتورع عن الهجوم عليها في الخطوة القادمة. هنا تفاجئها البوصة الثقيلة اللاهبة منهالة على ردفيها البارزين الجميلين كقلتين من الفخار الأحمر، وعلى ظهرها وكتفيها. تراع أمي، تطلق صواتها في الدار.. وكلما صوتت يزداد غضب أبي من شدة شعوره بالحرج فيقول: خليها فضيحة بالمرة، ويواصل التلطيش في جسدها كيفما اتفق وهي تجرى مذعورة منه هنا وهناك في أركان البهو والحوش وهو يلاحقها حتى يوفقها الله في تلقف طرف العصا بيديها، حينئذ تموت بيديها عليها وهو يجرجرها على الأرض بغيظ وحنق محاولا نزع العصا منها فلا يفلح بل يتعثر وتنفلت العصا من يديه فيرتد متشقلبا على ظهره، فيصرخ وينهض متأوها ممسكا برأسه ووسطه متأوها يتجه نحوها مهرولا لكنها تكون قد أسرعت بدخول قاعة المعاش وأغلقت الباب عليها من الداخل. حينئذ يرتد بكل عنف متجها نحو قاعة عمتي «فرح» بذراعيها في شيء من التحدي والاسترحام والاستغاثة:
ـ «حتضربني عشانها؟! حتيجي مع مراتك علي؟!».
لكنه يكون قد انقض في كرشها وصار يضربها باليد واللكمية ويرفسها. هي ضربة واحدة جادة موجعة يضربها بها لها في مكان أمين من الخطر أما بقية الضربات فمجرد حركات قرعاء تتلقاها عمتي «فرح» بالصوات الحاد موهمة أمي أن أبي يمزقها تمزيقا!..
أمي تفقس هذه الفولة دائما وتحاسبه عليها نهاية الليل. وهو يعرف أن ذلك سيحدث دائما بكل حذافيره. لكنه بعد أن ينهي تمثيلية ضربه لعمتي «فرح» يمضي منتفضا فيفتح الباب ويخرج إلى الخلاء.
حينئذ تجابهه الأشجار الكثيفة المزروعة في الجنينة في مواجهة الباب تماما، وممتدة على مدى نصف فدان محاط بسور مبني بالأسمنت طوله قامتي رجل وملتحق بدارنا لا يفصل بينهما إلا باب الشارع، وتحت الأشجار فجل وجرجير وقثاء وباذنجان وورد. الباب المطل على الجنينة يقف بين أربعة شبابيك تطل على الجنينة يقرب طولها من طوله ولونها من لونه حتى الزخرفة المشغولة كأنه أب يتوسط أربع أولاد نجباء، شباكان يفتحان على البهو وشباكان يفتحان على المندرتين المتقابلتين، وكل من المندرتين تطلان على شارع عمومي بشباكين من نفس الطراز..
ولبيتنا مدخلان متقابلان يفتح كل منهما على شارع عمومي يخترق أحشاء عزبة منظمة الشوارع متقاطعتها مبنية كلها بالطوب الطيني المخلوط بالتبن فكأنها علب خصصت سقوفها لأحمال القش والحطب وكأنها كلها ملتحقة ببيتنا المبني بالطوب الأحمر والمغفق بالأسمنت والتبن وبالطلاء الملون.

ثمة مصطبة هنا وأخرى ها هنا تحت كل من الشبابيك الأربعة ومفروشة على الدوام بشرائح الحصير الملون، فمن فوقها تندة من الخشب الأنيق المزركش بارزة من السقف تحتجز الشمس والمطر وتتصل بفروع الشجر في عصاري الصيف ولياليه وأمسيات الربيع والخريف بنعيمها..
أعظم متع أبي بعد الصلاة والتسبيح أن يجيء بالمخدة والمساند ويضطجع على المصطبة يصحح الكراريس بإمعان ودقة ومزاج، ويكتب عليها الملحوظات بالقلم الأحمر، بعدها يقرأ الجرنال القادم إلينا لتوه بعد ثلاثة أيام من صدوره في البندر إذ يسافر له «أبو العباس» كل يومين باتفاق مع قرائه في البلدة والمتعهد في البندر.
في المساء يصلي جماعة في جامع «ابن هارون» في وسط البلد ـ ووفاء للمكان الذي تربى فيه وقضى جل عمره قبل أن يجيء إلى هذه الدار في ظاهر البلدة منها للغيطان مباشرة ـ ويرجع متبخترا بجسمه التخين العريض المقشر، والجلباب البوبلين الكريمي ذي الأقطنة الحريرية يهفهف حول ساقيه الراسختين المدكوكتين على عَقِبيْن أحمرين فوق كعبي الشبشب البني العالي الذي يبدو من البوز كحذاء لا ينقصه إلا غطاء الكعب، والذي يفصله أبي والأعيان عند إسكافي محترم في دسوق البندر.
فوق الرأس من أبي طاقية من نفس قماش الثوب. في يمناه العصا البوص أم عوجاية، وفي يسراه مسبحة من الكهرمان.. ووجه الصديري الشاهي اللامع الناعم بأزراره الصدفية، يشهد لنظافته أنه يتغير كل بضع ساعات مع أنه هو هو.
لا يني يقطع التسبيح ليلقي السلام على رهط من الجلوس أو يرد على مار ابتدره، فيقول له الجلوس: «تفضل يا عيسى أفندي». ويحلفون بالله أن يتفضل ويحني رأسه باسما ممتنا يرد شاكرا: «كتر خيرك! يتنه عامر».. ويقول له المارون في أريحية وتقدير: «يلزمش أي خدمة يا عيسى أفندي؟ أؤمر والله!». وأحيانا يحسون بالحرج من ذكر اسمه فيقولون يا أفندي، فيرفع يده بالشكر نحو رأسه ويعيدها مبسوطة نحو صدره عدة مرات في حين يربت بالأخرى على ظهر من عرض الخدمة..
العيال الذين يعلمهم في المدرسة إن صادفوه وهم يلعبون في الطريق يتأدبون في الحال لدى رؤيته المفاجئة، يتجمدون كأن سهم الله نزل عليهم يتصنعون أنهم كانوا يشترون أشياء لآبائهم من الدكان، يقف الواحد منهم على جانب من الطريق رافعا يده مبسوطة إلى جوار أذنه بالسلام والتحية حتى يمر المعلم مبتسما له بهزة من رأسه. ذلك أن أبي «عيسى أفندي الحصري» حنبلي في شغله وحياته كما يصفه الناس..
وفي أمور التربية والتعليم ليس عنده كلمة يا أم ارحميني وقد طلع من تحت يديه الثقيلتين أجيال عدة من أهل البلدة بعضهم واصل التعليم في دسوق البندر، فمنهم كونوستبلات في الداخلية وكتبة في المحاكم والوسايا، ومنهم أزهرية لهم شأن في البلدة، كلهم يضربون المثل بخيزرانته القصيرة اللاهبة، وفصوص الجمر بين أصبعيه حين يفرك بهما أذن التلميذ الغبي فركة لا ينسى بعدها ولا يتلجلج في قول بل ينطق في الحال ولو بالإلهام ورزقه على الله وحينئذ على المعلم أن يتكفل بالتصحيح. كلهم يحلفون بحياته في الشرح وفي التفهيم لا يترك البجم حتى يضع في رأسه مخا يعي ويحفظ ويمشي على العجين لا يلخبطه.
كلهم يعرف عن ثقة وعن يقين تامين أن «عيسى أفندي الحصري» (أبي) لا تخرج من حنكه العيبة أبدا، إذ هم عاشروه خمسين عاما أو نحو ذلك فما عاب في أحد قط، وما تلفظ بقول ناب، وما اغتاب أحدا في غيبته..

وقد كنت أظن أن هذا مجرد مدح في أبي قد لا يستحقه بحكم غرام أهل بلدتنا بمدح الأفندية وأهل السلطة. إلى أن دخلت المدرسة التي هو ناظرها. وكان قد مضى عليَّ حينٌ من الدهر أنظر فيه إلى أبي هذا نظرتي إلى رجل غريب تماما، إذ يتعين علي أن أفعل مثلما يفعل الناس في توقيره وتبجيله فأقول: «عيسى أفندي». فلما التحقت بالمدرسة رأيت «عيسى أفندي» ـ حضرة الناظر ـ يقف في وسط الطابور كصدغ من جدار تخين، طربوشه القصير منكفئ إلى الأمام انكفاءة يسيرة والزر من خلفه مصفوفة خيوطه السوداء كشريط أسود ملتصق به التصاقا. سترة البدلة طويلة تغطي مؤخرته الضخمة الردفين وزرارها الأوسط مشبوك في عروته حول ربطة عنق عتيقة قرمزية اللون مشجرة ومزيتة عند العقدة بزيت العرق المتجلد الكالح، لكن لاسة حريرية ملفوفة حول رقبته تداريها من تحت السترة ذات اللسانين العريضين المبطوشين على جانبي الصدر يظهر من تحت أيسرهما منديل حريري ملون على هيئة أهرامات ثلاثة بارزة من فتحة جيب الصدر. أما البنطلون فقصير وشالح، من تحته حذاء أبيض على بني برباط عقدة وشنيطة..

من حوله نشط المدرسون نشاطا هائلا، «جابر أفندي» ينظم الطابور، «قمر أفندي» يتفحص الوجوه بحثا عن العماص في العيون والوسخ في الثياب والأظافر الطويلة في الأيدي الخشنة، الخيزرانة مخفاة خلف ظهره فيما هو يمضي متنقلا من واحد لواحد، يتحفز لإبراز العصا، ولابد أن تفاجئ ولدا يزغده في كتفه صائحًا: «أنت يا ولد! اطلع بره!»، ليخرج الولد منتفضا من الخوف الساحق يجعر مقدما، إذ يتولى «راضي أفندي» لسوعة يديه ومؤخرته وكتفيه بالخيزرانة غير آبه بصراخه مهما التاع وارتفع.

بعد ذلك يمر حضرة الناظر «عيسى أفندي الحصري» ليراجع بنفسه، متوقفا عند بعض الولدان قائلا:

ـ «أنت ابن مين يا ولد؟».

فيصيح الولد بأعلى صوته نجاة من الرعب كأنه في حصة المطالعة:

ـ «بسطويسي محمود عسر يا أفندي».

فإذا بحضرة الناظر يزغده بالعصا في جنبه مبرطما:

ـ «جاتك داهية تسم بدنك»!

ثم يتجاوزه من دون أن نعرف لماذا شتمه لكنني أعرف أنه يداري بهذه الشتمة خوفه أن يكتشف الولد أن أباه «محمود عسر» عزيز على أبي معزة الروح فيعتمد الولد على ذلك ويسيء السلوك والمذاكرة...

في مرة كان يقوم بهوايته المفضلة في المشي على أطراف قدميه حتى ليفاجأ به الفصل داخلا يترقب عمل المعلمين يعرف من منهم فاقد السيطرة على الفصل فيقويه ويعينه، ومن يتهامل فيوبخه بكلام جاء عن الرسول والقرآن الحكيم قبل أن تجيء به لوائح وزارة التربية والتعليم وواجبات المعلم..

مر على فصل غاب معلمه في إجازة عارضة وكان هذا الفصل فصلي. فانزلق إلى أذنه ـ لسوء بختي ـ لفظة قبيحة جدا لم أكن أدري أنني قلتها ولهذا نسيت تماما أنني قلتها. ما دريت إلا وحضرة الناظر واقف أمام التخَت كأنما لفظته السبورة في غمضة عين، وكانت الحرقة بائنة في عينيه يطلع منها صهد يعرقنا جميعا، نفس النظرة التي تحل بعينيه حين يقرر ضرب أمي أو عمتي «فرح» بدون فرصة للتراجع في القرار. في هدوء شديد نقر على قمطر المعلم الغائب وقال من بين أنيابه:

- «مين إللي نطق بالكلمة الفلانية؟».
صرنا جميعا وصرت ننظر حوالينا متسائلين كأننا فوجئنا بهذه الكلمة النابية لأول مرة في حياتنا. صار العرق أنهرا تتصبب في أقدامنا وشبح الفلكة يلوح على مبعدة برهة وجيزة. صرخ فينا:
- «مين؟!».
انعدلنا في الحال منكمشين لا نرد بل لا نقوى على الرد لإحساسنا بمدى خطورة أن ترد هذه الكلمة على لسان شخص بله أن تجيء على لسان طفل في المدرسة. يبدو أن صوتنا الجماعي قد همس خافتا:
- «ما نعرفش يا أفندي! ما سمعناش!».
صار يشوح بذراعيه في تأكيد مذكرا إيانا:
- «الكلمة إللي اتقالت من دقيقة فاتت! أنا سامعها بودني! مين الولد قليل التربية إللي نطق بيها؟!»
فلم يرد أحد. فأشار نحوي في الصف الذي أجلس فيه وراح يزوم في توعد قائلا:
- «على كل حال أنا متأكد أن الصوت جاي من هنا».
ثم تركنا واتجه للباب صارخا:
- «يا مهدي! هات الفلكة وتعالى!»
وارتد عائدا نحونا يقول:
- «كلكم حتتمدوا واحدًا واحدًا! كل واحد ثلاثين عصاية! لكن لو كنتم عايزين تعفو نفسكم من الضرب قولوا لي مين إللي نطق الكلمة دي في الفصل الدراسي! عشان أضربه لوحده!».
فبكي الأولاد مقدما، لأن معظمهم لم يكن قد سمعني في الواقع، وتهدلت أصواتهم الباكية المرتعبة فوق صدورهم حتى أنا بكيت مجاملة لهم فقط إذ إن شيئا ما في مخيلتي كان يطمئنني بأن الذي سيضربني هو في النهاية أبي قبل أن يكون حضرة الناظر. وهنا دخل «المهدي» ممسكا بالفلكة، فارتفع الصراخ دفعة واحدة، فنحاه حضرة الناظر جانبا ونظر فينا كأنه يوجه لنا الإنذار الأخير:
- «على فكرة! الولد الشاطر صحيح! إللي عنده ضمير ويخاف من عذاب ربنا يوم القيامة! هو إللي يقدر دلوقت يعتق زمايله من الضرب! وإذا عمل كده ما يبقاش فتان! بالعكس ده يبقى شجاع لأنه بيفدي زملاءه ويرضي ضميره! ولو كان شجاعًا بصحيح يقول أنا أخطأت وقلتها! وحاخفف العقوبة عنه!».
وسكت - وهنا وقف الملعون «بسطويسي» من جواري رافعا أصبعه صائحا:
- «أقول لك مين إللي قالها يافندي؟»
أومأ له صائحا:
- «تبقى ولد شاطر بصحيح!».
فوجئت بأصبع الملعون «بسطويسي» تميل بذراعه نحوي مشيرة إلي. انتفضت واقفا وقلبي يدق طبولا، جعلت أصيح في رعب باك»:
- «حرام عليك يا كذاب! والله ما قلت!».
صرخ حضرة الناظر في:
- «اخرس أنت!».
فانكتمت أنفاسي. قال لـ«بسطويسي»:
- إوعى تكذب يا ولد! تحلف اليمين؟».
صاح «بسطويسي» في جد وبراءة:

- «والله العظيم يا أفندي هو إللي قالها! حتى بالأمارة كان بيشتمني بيها!».
حضرة الناظر رأى الصدق ماثلا في عيني الولد «بسطويسي» عليهما اللعنة وفي صوته يخرسه الله. فأشار لي بطرف أصبعه أن أجيء. أخذت أتهارش أتلكأ أتحكك بالأدراج ناظرا في عينيه أبحث فيهما عن الأب فلا أجد أي إنسانية، فسلمت أمري لله وقدمي إلى مشنقة الفلكة التي قرص حبلها على خنقة قدمي وارتفع به حاملها المتين فوق كتف «المهدي» ودماغي يتنطط في الأرض من فرط اللوعة بل من فرط المحنة، إذ إنني كنت يومها بدون سروال كمعظم العيال مما جعلني فرجة وأي فرجة.. وفين يوجعك يا «شوكت» يابن حضرة الناظر من خيزرانة الناظر نفسه. بعد الخيزرانة الثلاثين التي انتظرتها بلهفة فقدت الصواب فحملني الفراش إلى قمطري. وعند الفسحة عاقبته بالتسلل مزوغا إلى الدار حيث رقدت في فراشي يومين متتاليين لا أقوى فيها على الوقوف، وأبي يتجنب النظر إلي ويغمغم قائلا لأمي:
- «سيبيه يتربى عشان يعرف غلطته!».
ليس غريبا إذن أن يجعل الناس من أبي قاضيا في محكمة لهم يعقدونها في المنادر والدواوير بحضور العمدة وشيخ البلد، إذ تعرض المشكلة على الحضور بمحضر من أطرافها كلهم، أو المهمين منهم. وجود حضرة الناظر يفرض عليهم التزام الصدق والصراحة في ذكر الوقائع ضمانا لوقوفه في صفهم عن حق وحقيق، ثقة منهم في أنه لن يغش ضميره تحيزا لأحد كما هو متوقع من العمدة مثلا، بل سيقول للمحقوق أنت محقوق حتى لو كان أباه، سوف يحكم بأن فلانا غلطان في كذا وكيت وعلانا غلط في كذا وكيت وبناء عليه يستحق فلان كذا طرف علان ويستحق علان كذا لدى ترتان..
كان علي إذن أن أعترف بيني وبين نفسي أنا الآخر أنه يستحق بالفعل هذه المكانة بين القوم.. لكن شيئا ما سرعان ما يحيرني ويقف في حلقي كاللقمة المحشورة، ذلك أنه حين أتسلل للفرجة على مجلس كهذا يضم أبي، وبالأخص حين يكون المجلس منعقدا في دارنا - ألاحظ أن المتخاصمين قد احتدوا بعضهم على بعض في الأساس بسبب لفظ معين قاله أحدهم للآخر فانقلبت عائلته على أعقابها طالبة رد العيب ولو بالردع. حينئذ، وحينئذ بالضبط، يحلو لي بكل لذة واستمتاع مراقبة رد أبي لمعرفة رأيه في مثل هذا اللفظ بعينه ماذا سيكون؟..يفجؤني ارتياع أبي من هذا اللفظ، إذ يقشعر بدنه ويلتوي وجهه في اشمئزاز غاضب صائحا كأنه أوذي في مشاعره: «أعوذ بالله! أعوذ بالله!»، ثم لا يكتفي بذلك، بل يصيح في بحة من الانفعال المندهش:
- «إزاي يا راجل تقول له لفظ زي ده؟! أنت مجنون؟! ما تعرفش أن اللفظ ده معناه كيت وكيت ومضمونه ودلالته وكله كله عار في عار؟! ما تعرفش أنها جريمة قذف تدخل بسببها السجن؟! ما لكش حق أبدا: أنت غلطان والغلط راكبك فوقك وتحتك! ثم إنك يا أخي راجل متربي وابن ناس وأهلك في منتهى الأدب والأخلاق الحميدة.. إزاي يصدر منك هذا العيب؟! أنت دلوقت ارتكبت جرم وإثم جريمة القذف في حق فلان، وذنب عصيان الله لأنك عصيته فانهار ركن كبير من إسلامك! لأن المسلم من سلم الناس من لسانه ويده!».
لا يعصمني من الجنون حينئذ سوى انبهاري بكلمات أبي هذه وقد فعلت فعلها كالسحر في جوانح الحضور، فإذا هم يخففون من حدة حوارهم، ثم إنهم يتحفظون في الكلام، ثم ترق عباراتهم شيئا فشيئا ثم تخفت الاحتجاجات والاعتراضات وتنمحي في أزقة التنازلات الجانبية الخفية.. لكن البِشْر سرعان ما يعلو جميع الوجوه ظالمين ومظلومين، وإذا بشفاه تقبل رءوسا وأذرعا تحاضن صدورا، وأدوار من الشاي تنهمر بلا حساب ولا بد أن يتناوله الجميع تناول الود والكيف الرائق،

وركية نار الشاي على مقربة منهم تبدو مضحكة أمام ركية نار الود في صدور الحضور تذيب صدأ الحقد تزيل شبح الفرقة من القلوب.
إنهم جميعا من أهالينا الطيبين مهما عنفوا أو تطاحنوا يظهرون في النهاية دائما وعلى وجوههم اقتناع بأنهم جميعا محكوم عليهم بالتآخي ولا مفر من التواد. نفس الكلمات التي يقولها أبي دائما بعد أن تنتهي السهرة كتعقيب جانبي على ما حدث بعد أن حدث وانتهينا منه..
حتى انبهاري هذا نفسه سرعان ما يضمحل أمام ذلك الشيء الذي يحيرني في أبي.. ينفعل فيجرّم الألفاظ والمفردات تجريما، فهذه اللفظة فيها سجن بأشغال شاقة وهذه سجن حاف! وهذا القول شرير وذاك احتيال. أنبهر ثانية لهذه المكتشفات الجديدة بالنسبة لي وتلَذّ لي غاية اللذة. إلا أن انبهاري ـ مرة أخرى ـ سرعان ما يخبو أواره أمام تلك الصورة الإنسانية التي يشخصها أبي للألفاظ والمفردات والأقوال، راسما بيننا وبينها العلاقات كأنها ونحن أناس نتبادل المنفعة، تبعا لذلك فهذا اللفظ يجب أن يتأدب وهذه المفردة لابد أن تنفى من عتبة اللسان وهذا القول لابد أن يحتشم وهذه العبارة بالذات.... يجب أن تفهم أقدار الناس وكراماتهم وكبرياءهم فلا تنطلق من اللسان أصلا إذ إنها عبارة كالكرة المطاط ترتد إلى قائلها في الحال تصيبه كما أصابت الآخر، ومن هنا ـ يقول متجليا ـ كان السر في قوله عليه الصلاة والسلام: إياكم أن يسب أحدكم أحدا فيسب هذا أباه ويسب أمه.. وقد صدق المثل الشعبي هو الآخر حين قال: الولد العديم التربية يجيء لأهله باللعنة..
أبدا لا تستطيع هذه الأفكار الجميلة البديعة التي يثيرها أبي في خيالي أن تشغلني عن ذلك الأمر الذي لا ينفك يشغلني. فالعجيب ليس أن يقول أبي كل هذه الدرر أو يفعل كل هذه الأفاعيل الخيرة الجبارة ويحظى بكل هذه المكانة، لا لم يكن ذلك أقصد لم يعد عجيبا في نظري، فقد سبق أن اقتنعت أنه يستحق كل ذلك عن جدارة. إنما العجب العجاب حقا هو أن هذه الألفاظ التي يجرمها أبي ويرفضها ويطالب بنفيها من عتبات اللسان لا تُعَدّ شيئا بالقياس إلى الألفاظ البذيئة ـ عدم المؤاخذة يا حضرة الناظر ـ التي يصبها أبي على أمي وعمتي «فرح» في لحظة الغضب ولحظات غضبه في العادة جارفة جارحة..
أظن أن هذا ليس أعجب ما في أبي. فالأكثر عجبا منه أن أبي يعود من صلاة العشاء وقد نسي كل شيء حدث قبل خروجه كأنه لم يحدث أصلا، أو كأنه حدث لشخص آخر غيره، كل هذه المهانات التي ألحقها بأمي وبعمتي «فرح» وبنفسه، وكل هذا العناء الذي خيل إلي أنه سيسقط على أثره ميتا، يتلاشى بكل هذه البساطة كأن صلاة العشاء قد مسحته كما يمسح هو السبورة بالسفنجة.
في العادة تلوي أمي بوزها طويلا، ربما طول الليل.. لكنها ما أن تسمعه يفتح باب الجنينة ويدخل مقبلا نحو المصطبتين حتى تهبط عن السرير فتغسل وجهها في حوض الحمام المبني بالأسمنت في ركن من القاعة ملاصق لجدار خارجي، تنظر في مرآة البوريه فترى أمامها غزالا أسمر اللون لا مثيل لجماله أو رشاقته في البلدة كلها، مكسم الجسم في دقة؛ فالخصر خصر والصدر صدر والردف ردف وكل شيء فيها يقول ها أنذا على عينك يا تاجر.. هذه هي أوصاف «زنوبة عمراية» ترددها عن أمي دائما حتى صرت وصرنا كلنا نقلدها في ذكر تلك الأوصاف دون حرج.
تعصب رأسها بتربيعة مشغولة بالفل والترتر على طريقة أولاد الناس الطيبين، إذ هي ـ ولا فخر ـ تربت في سراية من سرايات بلدتنا الكبيرة.. ولأنها ليست متزوجة من فلاح بل من معلم يلبس البدلة الإفرنجية فيحق لها هي الأخرى أن ترتدي فساتين على الطريقة الإفرنجية وأن تغض

شعرها تحت إيشارب حريري أو تتركه - عند روقان البال - مطروحا منسابا كالغدران على ظهرها وصدرها في غزارة متفحمة.
ينمحي أثر الدمع عن صفحة وجهها الخمري النحاسي المتناسق الملامح حلو التقاطيع.تطمئن على زينة وجهها ونظافة ثوبها وعلى رائحة الصابون الفائحة من صدرها وشعرها على الدوام. تكون هي الأخرى قد صلت العشاء وهدأت نفسها واستكن الألم. تمضي في البهو على مهل تتبختر كالإوزة مطرقعة بشبشبها في عقبيها لتغيظ عمتي «فرح» ولتعطي بطرقعات الشبشب على الأرض إشارة لأبي بأنها نهضت وها هي ذي قادمة حتى لا يضطر إلى النداء بانفعال قد يجر عراكا جديدا يؤدي إلى ختام أسوأ.
هي تعرف أن أبي قد تربع على المصطبة مستريحا على المسند ينتظر طعام العشاء. تتجه نحو الكانون المنصوبة فوقه حلة الطبيخ الذي هو في الأغلب ذَكَر أو حمام مما تربيه عمتي «فرح» بغير حساب في حوش الدار الخلفي. تتذكر شيئا، تترك الكانون وتتجه إلى الشباك حيث يوضع «الكلوب» فوق أرضه. تتقرفص على الأرض، بحرص شديد تعمر الكلوب بالجاز، تعطيه نفسا بالمكبس، تشعله، تفتح درفتي الشباك تضعه ليملأ الدنيا وشيشا مبهجا يغطي صوت نقيق الضفادع وصفير الصراصير ويرمي ضوءه الساطع في أحشاء الجنينة يفرش فوق نجيلها ونباتها شبكات وملاءات من خيوط برتقالية.. تعود أمي فتشعل النار في الكانون تحت الحلة تسخينا للطعام. تسرع فتخرج الطبلية تضعها على المصطبة، تلحقها بالملعقة والملاحة وطبق اللفت والسلاطة الخضراء منتجات جنينتنا. ترتكن على الشباك، تعقد ذراعيها على صدرها، تبقى شاردة في انتظار سخونة الطعام..
أكاد أعرف أنها في شرودها هذا تفكر في أمرها، ولا بد أنها تسترجع في دماغها قصة أبي معها وحبه لها وتضحيته من أجلها. الصور الكثيرة التي حكاها أبي لها عشرات المرات أمامي في أذيال الليالي المكفهرة كي يصالحها بها ويثبت صدق إحساسه من ناحيتها، صرت أحفظها كما أحفظ حياة أبي:
إنه الابن البكري للأسطى «حسين سليمة الحصري»، الذي كان الحصري الوحيد في البلدة لديه عدد من الصنايعية يوسع بهم شداته التي بها ساحة الدار القديمة، مرصوصة بعضها خلف بعض في صفين، كل شدة عبارة عن إطار من عروق الخشب معد بحيث يمكن التحكم في عرضه وطوله حسب مساحة الحصير المطلوب، بأن تفك الزوايا الحديدية القارصة عن الخشب لتتقارب العروق أو تتباعد ثم تربط الزوايا من جديد، ويمتلئ هذا الإطار بصفوف من خيوط الدوبارة مشدودة في الخشب بالطول ومنظومة بمسافات محسوبة بين الفتلة والفتلة، والخيوط تتخلل مضربا خشبيا ثقيلا. يتقرفص الصنايعي فوق لوح خشبي مستو فوق الخيوط، وبجواره حزم من نبات السمار الشبيهة بأعواد البردي، وقد جرى شق الأعواد من قبل إلى شرائح مبططة تلونت وترطبت بالماء. يتناول الصنايعي عود السمار، فيمرره صعودا وهبوطا من بين خيوط الدوبارة المشدودة حتى ينتهي العود فيلوي طرفه على نفسه تحت الخيوط، ثم يشد المضرب بضربة فوق العود تلصقه بأخوته فيبدو كما لو أن الأعواد قد خيطت بعضها في بعض بالإبرة..
حصائر جدي «حسنين سليمة الحصري» كان يضرب بها المثل في العب كله فيجيء الزبائن من كل مكان، حيث تمتلئ ساحة الدار بأعمدة من الحصائر مبرومة حول نفسها تنتظر قدوم أهلها بالبرايز الكثيرة. من حصيلتها علم أبي في دسوق البندر حتى نال شهادة البكالوريا والتحق بمدرسة

المعلمين وتخرج معلما في سنة حاجة وأربعين، حيث تم تعيينه في عدة بلاد مجاورة إلى أن توسط له نائب الدائرة الوفدية فنقله إلى مدرسة البلدة لينفعه في الدعاية الانتخابية..
جدي «حسنين سليمة الحصري» كان قد اشترى نصف الفدان هذا وادخره للزمن. وكان قد أنجب فوق أبي ثلاثة رجال وأربع بنات. أما عمي «عبد الرشيد» فقد ورث الصنعة بعد عجز أبيه، ولكن الثورة حين قامت رخصت الحصائر وطلع الناس في مطلوع جديد هو الأكلمة الرخيصة المصنوعة من بقايا الخرق والهلاهيل بعد برمها وغزلها وتلوينها، تباع بالتقسيط المريح نظير بضعة قروش كل شهر، والناس كلهم أحبوا فرش الأكلمة وفضلوها على الحصائر، فكلهم يريد أن يوهم نفسه أن في داره سجاجيد كعلية القوم.. فما كان من عمي «عبدالرشيد» إلا أن صفى الصنعة نهائيا واقتطع من الدار قاعة على الشارع فتح جدارها وحولها إلى دكان بقالة وجد في رواجه رزقا وفيرا مكنه من تسوية الورث مع إخوته والاستقلال بالدار ضاما أباه العجوز في عصمته إلى أن تحققت أمنيته ووفى كل ابن من أبنائه بوعده فسفره إلى «الحجاز مرة، ومات عقب آخر حجة عن سبعين عاما..
وأما عمي «سليمة» فإنه قد لبس في الجهادية وحين أنهى مدة الخدمة تطوع عسكريا في البوليس وهو الآن عسكري مرور في دمياط قد استوطن وتزوج من هناك وبات يزورنا كل بضع سنوات مرة.
وأما عمي «رجب» ـ المولود في شهر رجب ـ فإنه قد تمعشق في التعليم ونبه في المدرسة غير أن جدي خاف من الإنفاق عليه حتى لا يهجره ويعيش مغتربا شأن كل من يكملون تعليمهم في بلدتنا. لكن ذلك لم يمنع المقدور، فقد ظهرت نباهة عمي «رجب» وجودة خطه عند الكتابة وكلامه عند الحديث فاشتغل كاتبا للأنفار في وسية أفندينا بكفر الشيخ وسخا، وبعد الثورة صار موظفا في الإصلاح الزراعي. ولأنه متودك متفتح دائما فقد صير نفسه مسئولا عن جمعية زراعية كلامه فيها أنفذ من كلام المعاون الزراعي، فكون ثروة كبيرة واستوطن بندر كفر الشيخ وبات أفنديا معتبرا يهز البلدة يوم يجيء لزيارتنا.. وتزوج من «بثينة» بنت «غزال» البقال في بلدتنا والتي عملت مدرسة ابتدائية في كفر الشيخ بنفوذه في المديرية. هو الوحيد بين أعمامي الذي نفع كما يقول عمي «عبدالرشيد»، والوحيد الذي ظهر عليه حب الأبوين ودعاؤهما كما يقول عمي «عبدالسلام»، والوحيد الذي ضل سواء السبيل كما يقول أبي. لكنه رغم ذلك محترم من جميع الناس، ومع ذلك هو الوحيد الذي لم «يعصلج» مع أبي عند تقسيم الميراث فتساهل معه حتى آلت ملكية نصف الفدان إلى أبي ليبني عليه هذه الدار الفخيمة التي يتشرفون بها جميعا رغم أنه يستقل بها وحده.
وأما عماتي فإن عمتي «وهيبة» قد تزوجت من شيخ الخفر وعاشت في سر هادئ فأنجبت صبيانا وبنات.
وأما عمتي «فطومة» فقد تزوجت هي الأخرى من رجل يقرب لبعض أقارب لنا في بندر طنطا يدعى «سيد طعيمة» ويعمل سائق قطار وهي الأخرى تعيش معه في تبات ونبات.
تبقى عمتي «روح» وليس فيها من الروح شيء بل هي مكلبظة الوجه تشبه عمي «عبدالرشيد» في تربية اللحم على الجسد، قد عنست وفاتها قطار الزواج، ولما كانت البائرة لبيت أبيها فقد ألحقت بدار أخيها «عبد الرشيد» تأكل وتشرب وتساعد في شغل الدار.
بقيت عمتي «فرح» وليس فيها هي الأخرى من الفرح شيء بل إنها نكدية تموت في الحزن والغم، وشكلها غير متناسق على الإطلاق لا يعرف ناظرها إن كانت رجلا أو امرأة حيث لا صدر

لها ولا مؤخرة ولا شعر سوى وبرة خشنة تحت تعصيبة المنديل، ولهذا فقد عنست هي الأخرى وألحقت بدار أبي. وتتميز عن عمتي «روح» بأنها لا تزال تؤمل في قدوم العريس داخلا مع أبي ذات يوم قريب.
أمي هي الأخرى كانت تحمل الأمل نفسه وتهتم بأمره أكثر من عمتي نفسها..
عمتي «فرح» ـ وياللعجب ـ هي التي سعت في تزويج أبي من أمي قبل عشر سنوات مضت، وكان أيامها على وشك الانتهاء من هذه الدار الأبهة التي ستنقلنا إلى طبقة الأعيان مرة واحدة لمجرد أننا نستطيع أن نعزم فيها مرشح الدائرة بكل فخر ونفتح لمؤيديه المندرتين الكبيرتين ونقدم لهم فناجين الشاي الصيني وأكواب الشربات.
لم تكن هذه أول زيجة لأبي، فقد كان تزوج إبان تخرجه وتعيينه من ابنة خالته فعاشت معه سنوات طويلة لا تنجب فعرضها على حكماء بندر دسوق وكفر الشيخ فأكدوا له أن العيب منها، فصعبت عليه ابنة خالته أن يطلقها أو يتزوج عليها فقال هذا نصيبي قد رضيت به والحمد لله، وظل مخلصا لها حتى أصيبت بمرض الكوليرا في العام الثامن والأربعين أثناء غيبته في سفره للحجاز مع جدي، وماتت في ظرف يومين فحزن أبي عليها وقرر أن يبقى مخلصا لذكراها إلى الأبد..
إلا أن دارا كالتي ابتناها لا يمكن أن تكون بلا امرأة تنيرها وتزينها. هكذا ألحت عليه عمتي «فرح» واختارت له ـ لأجل النصيب ـ أمي «سعادات» بنت «زنوبة عمراية»..
بهذا تعيرها عمتي «فرح» دائما، وتذكرها بكل صغيرة وكبيرة: لقد تردد أبي حين حدثته وقال إنها بالفعل بنت جميلة رغم سمارها وكل رجال البلدة وفتيانها يتمنون الزواج منها لكنهم لا يفعلون أبدا، فلماذا لا يفعلون؟ تقول لك عمتي إنه البخت والنصيب. يقول لها كأنه يذكرها بالسبب الحقيقي وراء امتناع الخطاب:
ـ «إزاي بس يا فرح! واحد زيّ حالاتي له مركز اجتماعي مرموق يتجوز بنت واحدة أرملة مالهاش عيلة؟!».
تقول عمتي:
ـ «خذوهم فقراء يغنيكم الله»
حين تسمع أمي هذه الحكاية من أبي تنتبه إلى أنه ـ لطيبته ـ لم يكن يعرف السر في أن عمتي «فرح» رشحت أمي بالذات لزواجه منها.. لقد كان لأمي أخ وحيد هو خالي المرحوم «عمر عمر». وكان هو وأمي «سعادات» وجدتي «زنوبة عمراية» يقيمون في سراية «مصطفى بك ناصف» الذي يملك ألف فدان في زمام بلدتنا «شبشير الحصة» ويملك قصرا وأولادا كبارا يعملون في المدينة في وظائف كبيرة، وصغارا يتعلمون في لندن وأمريكا. ورغم أن الثورة ألغت الألقاب فإن الجميع ظل يناديه يا سعادة البيه. ورغم أن الثورة حددت الملكية بمائتي فدان فإنه قد نجح في توزيع الأفدنة على أولاده فلم يأخذ منه الإصلاح الزراعي فدانا واحدا.
وكان جدي لأمي «بخيت عمر» يعمل طول عمره تمليا في قصر «ناصف بك» هو وزوجه وابنه وابنته ويقيمون في حجرة مخصوصة في حديقة القصر، حيث يقوم جدي «بخيت عمر» برعاية الحديقة وقضاء المشاوير للبك، وتقوم «زنوبة عمراية» بخدمة الست في شغل الدار، وتقوم أمي «سعادات» برعاية شئون أبناء البيك الصغار، أما خالي المرحوم «عمر» فيقوم بتوصيلهم للمحطة بالركوبة عند سفرهم كل يوم لمدرسة البندر التي تعلم بالإنجليزي.
«مصطفى بك ناصف» رجل ابن أصل كما تحلف بحياته «زنوبة عمراية». جعلهم كأفراد من عائلته يكسوهم ثمين الكسوة يطعمهم شهي الطعام يبغددهم يدللهم يفرض على أهل البلدة

احترامهم..
خالي المرحوم «عمر» كان خفيف الدم يهزر ويضحك مع كل واحد بمناسبة وبغير مناسبة. وقد هزر وضحك كثيرا مع عمتي «فرح» في ماكينة الطحين أيام كانت مكلفة بطحين دارنا وهو مكلف بطحين «ناصف بك». فظنته المسكينة واقعا في هواها، فرسمت على الزواج منه، وتعمل على تقريب أبي من أمي حتى تقترب المسافة بينها وبين خالي المرحوم «عمر» لعله يتزوجها.
وكان من بين الأشياء التي أغرت بها أبي رؤيتها لأطقم الصيني والفضيات التي تحوشها ست هانم لأمي، مع الفساتين المدخرة، والعفش الفاخر الذي ستتجهز به من دمياط، والنقوط الكثيرة التي ستنهال عليه يوم الفرح.. إلى أن امتثل أبي لإلحاحها من أجل القسمة والنصيب فذهب يخطب أمي من «ناصف بك» فوافق في الحال ووافقت «زنوبة عمراية» ودفع أبي مهرا قيمته عشرون جنيها، ولم يمض أكثر من شهر واحد حتى كان كل شيء قد تم وانتقل إلى دارنا الجديدة عفش ثمين قوامه سرير نحاسي وبوريه كبير بمرآة بلجيكية وترابيزة وسط من الرخام وكراسي منجدة مذهبة ودولاب فضيات مليء بأطقم الصيني الفاخر من أطباق وفناجين.. وبهذا بات أبي من أعيان البلدة رسميا يفاجئ ضيوفه الأكابر بأطقم الصيني المفتخر التي لا توجد إلا في قصور الأغنياء الكبار.. وباتت أمي هي وعمتي «فرح» مثل السمن على العسل..
لم تمض سوى شهور قليلة حتى فوجئ أبي بأنها قد حملت في، فازداد حبه لها عمقا ومتانة. ولم يكن ليدور بخلد عمتي «فرح» ولا لأمي «سعادات» ولا «زنوبة عمراية» أن خالي «عمر» يمكن أن ينخطف منهم في غمضة عين، إذ دفعته الشهامة للمساعدة في إطفاء حريق فسقط فيه ميتا وشرب الجميع حسرته. على أن ذلك لم يشف غليل عمتي «فرح» أبدا ولم يعزها في مصابها الدفين، فباتت تعارك ذباب وجهها، وباتت تكره أمي لله في لله خصوصا بعد أن ولدتني وتيقنت عمتي أن وريثا شرعيا جاء لأخيها سيمكن لأمه في مملكة هذه الدار الفخيمة التي كانت عمتي تحتلها وحدها ذات يوم، وبات الاشتباك بينهما قائما كل بضعة أيام بدون سبب ظاهري، كثرت المنغصات في حياتنا بسبب استفزاز عمتي لأمي على الدوام. وكان أبي يصلح بينهما دائما بشق النفس، ولولا أن دارنا متطرفة خارج حدود البلدة، ولولا أنها مغلقة بإحكام لكانت فضيحتنا مضرب الأمثال.
لهذا السبب صرنا في حاجة مستمرة لمجيء الخراز بعد أن كنا نأنف من التعامل معه لوجود نسخة زائدة من كل طبق وفنجان. ذلك أن عمتي «فرح» أصبحت كلما رفعت طبقا لتغسله أو لتضعه على الطبلية وقع منها وجاء إلى ستين حتة.. فتتهمها أمي بأنها فعلت ذلك بالعنية للتنكيل بها.. فترفع عمتي وجهها إلى السماء مشوحة بذراعيها صائحة في ولولة باكية!
- «حسبي الله ونعم الوكيل! حسبي الله ونعم الوكيل!».
وتشتعل المناحة في الحال، فيرتفع صوت أبي، ثم ترتفع عصاه.. ويتصادف بعدها بقليل أن تحمل أمي طبقا أو فنجانا، فينفلت منها. ويهوي إلى الأرض هشيما، فتتسمر أمي في وقفتها ذاهلة مرتعبة من هذا الخراب المستعجل لتفاجأ بأن عمتي «فرح» تراقبها شامتة ممصوصة بشفتيها قائلة:
- «أصلك ظالماني! ربنا ما يحبش الظلم!».
فتصرخ أمي فيها، متهمة إياها بأنها قد نحستها، وأنها السبب في اضطراب أعصابها. يشتعل الصياح والردح، تحسمه عصا أبي،التي ربما أخطأت هي الأخرى وطيرت في الهواء طبقا يتهشم قبل وقوعه، فيفقد أبي صوابه وينزل في الاثنتين ضربا حتى يفقد قوته فيخرج للصلاة.

والآن آبت كل ثروتنا الثمينة من أطقم الصيني والفضيات إلى كومة هشيم وشطفات تنتظر مجيء الخراز قبل أن تهجم علينا الضيوف فجأة ونضطر لتقديم الطعام لهم في أطباق من الصاج الملون. صرنا نستدر صوت الخراز ونتشوق لسماعه مناديا بصوته الرفيع الحاد الشجي..
وصار أبي في حيص بيص كما يقول، فما به أن ركنا عظيما من أركان الأبهة قد انهار في دارنا وشبح الأطباق الصاج يهددنا بمنظره الكئيب على الطبلية في كل وجه فينقبض وجه أبي انقباضا شديدا، يتجرع الطعام على مضض ومن حين إلى حين يسأل: «هو الخراز ده بطّل يمر ولا إيه؟!».. وما به من تزايد النقار والزقار بين أمي وعمتي «فرح» بدون أسباب يمكن الإمساك بها والتحقيق فيها.. وما به من حرج بسبب اضطراره للشتائم المقذعة التي يوجهها كل يوم لأمي ولعمتي. لقد بات يشعر بالندم، ويقضي وقتا طويلا في الجنينة يبرطم ويستغفر الله من الشيطان الرجيم الذي ينتصر عليه كل يوم فيضعه في صف المجرمين الشتامين، وما الشيطان الحقيقي في نظره إلا واحدة من اثنتين: أمي أو عمتي.. ولذا فإن الله سينتقم له منهما عن قريب بإذن الله.
كل ذلك لا يعد شيئا بالنسبة لخوفه من «زنوبة عمراية» حين تتأكد من أن عمتي «فرح» هي التي كسرت معظم الصيني في شوار ابنتها وبإرادتها عامدة متعمدة. آه لو علمت! أسمع أبي في الجنينة وحده يردد هذه العبارة على سبيل السخرية، لكنني ألمح الخوف الحقيقي في عينيه ونبرة صوته حين يردد قائلا لنفسه في توجس حقيقي: «ما زمانها عرفت! هي النسوان يتبل في بقها فولة؟! ربنا يستر! ربنا يستر!»..
أعرف في الحال أن أبي يعرف أن الفضيحة الحقيقية ستكون يوم تقف له «زنوبة عمراية» لتردح مطالبة إياه بتعويض ابنتها عن الصيني.. لقد دخلت ابنتها على أبي بطاقم من أطقم الباشوات، طاقم عجبة، يتحاكى به الناس حتى اليوم، القطعة الواحدة منه بالشيء الفلاني، وليس منه الآن في بيوت حتى الأغنياء في بلدتنا، فهل تكلفوا ثمنه الغالي لكي تجيء عمتي المتفرعنة وتكسره؟! إلهي تنكسر رقبتها..
ستتردد «زنوبة عمراية» على كل دار في بلدتنا وتشتكي فيه من عمتي «فرح» ومن رخاوة أبي وتحيزه لها ضد أمي.سيعرف كل الناس أننا لم يعد عندنا أطقم صيني نتباهى بها، وأننا عدنا إلى أصلنا فقراء نأكل في الصاج والفخار بعد أن ثبت أننا لا نصلح للتمدين بطبيعتنا..
أرى كل هذه الهموم مجسدة على وجه أبي، أقول لنفسي برعب: ماذا لو علم أن «زنوبة عمراية» رددت هذا الكلام بالفعل أمامي في بيوت بعض جيراننا المقربين؟! ولابد أنها رددته في بيوت أخرى، ويعلم الله ماذا ستفعل حين تيأس من تحرك أبي لشراء طاقم جديد أو السفر للحم هذه الأطباق في البندر..
ما يتأكد منه أبي أن «زنوبة عمراية» لن تخاف من طرطوره، ولن تتورع عن الوقوف قصاده في أي مكان ترد عليه الصاع صاعين وسوف تغلبه وتغلب عشرة من أمثاله في لحظة واحدة.. إنها تردح في بعض الأحيان لـ«مصطفى بك» نفسه لكنه يضحك ويسامحها لعلمه أن الجميع يعرفون فضلها عليه إذ كانت هي مربيته وهو طفل صغير وفي هذا الكفاية.
لكن كل ما كان أبي يخافه قد حدث. جهرت «زنوبة عمراية» بشكاواها وفضائحها فصنع منها الناس نكتة يتندرون بها مع أبي في المجالس وأبي يبادلهم السخرية مستنزلا اللعنات على الخراز النذل الذي عانده واختفى. حتى الضيوف الأغراب الذين كانوا يزوروننا من حين إلى حين بدءوا يستسيغون منظر طبق واحد أو طبقين من الصيني على المائدة والباقي أطباق من الصاج الملون..

وكما يقول أبي دائما: ليس للجروح الغائرة من مداو سوى مرور الأيام.. إن الزمن هو الخراز الحقيقي بالنسبة للنفوس الممرورة، إنه على الأقل ينسينا الآلام بكثرة ما يعترينا من مشاغل ومشاكل ومنغصات جديدة تطغى على القديمة. وقد صدق. فمن كان يصدق أن عمتي «فرح» تتزوج ذات يوم؟ لكنها تزوجت.. خطبها كهل جاء يعمل عسكريا سواريا في نقطة الشرطة التي افتتحت حديثا بالبلدة وسكن بجوارنا فانبهر بشخصية أبي وسلوكه فتقدم للزواج من عمتي فكان له ما أراد.. وخلت دارنا من العراك والردح خلوا تاما، وخفت صوت أبي تماما فلم يعد يجهر إلا بالصلوات والتسابيح.. وبدأ ينشغل كثيرا بأمر الإنجاب حيث إن أمي أمسكت عن الإنجاب بعدي لسبب مجهول لم يهتم به إذ إنه كان يتمنى منه ولدا واحدا يحفظ ذريته فلما جئت أنا حمد الله على ذلك ولم يطلب منه سوى أن يبقيني على قيد الحياة ويطرح فيَّ البركة. على أن أمي كانت قد نسيت هذا الأمر تماما.

ولقد كبرت أنا فصرت في طول أبي، وذهبت إلى دسوق في البندر للتعليم المخصوص، وأصبح أبي يفخر بأن أمشي إلى جواره في شوارع البلدة خصوصا عند الذهاب إلى الصلاة. وكانت الثورة قد أغرقت البلاد بأشياء جديدة وبضائع جديدة على رأسها الأطباق التي تشبه الصيني تماما بدون أدنى فرق ظاهري لكنها من الفخار الجيد الصنع فاشترينا منها طاقما، مثلما اشترى الناس كافة منها لرخص ثمنها ولندرة الصيني الأصيل. ثم طرأت علينا أطباق جديدة أخرى من الميلامين لا تنكسر مطلقا ولا تذوب، فاشترينا منها طاقما مثلما اشترى الناس كافة في بلدتنا..

اختفت الأطباق الصيني من موائد كل الدور إلا القليل منها. وأكثر من مرة حاولت أمي رمي نثارات الأطباق الصيني القديمة لإخلاء مكانها للأطقم الجديدة في دولاب الفضيات، لكن أبي كان يمنعها من التفريط فيها، بل كان يحلو له أن يراها الضيوف مكومة في ركن من الدولاب بارزة من خلال الزجاج..

وذات يوم كنا عائدين، أبي وأنا، من صلاة الجمعة متوجهين إلى دارنا، حينما قابلنا ـ فجأة وعلى غير توقع ـ الخراز. كان يمشي هذه المرة في بطء شديد، يرفع قامته بصعوبة، يردد النداء بشكل واهن..

لا أستطيع وصف السعادة التي حلت بأبي لحظتها كأنه طفل صغير رأى بائع حلوى غزل البنات بعد غيبة طويلة. فتمهل في مشيته يهم أن يغير طريقه ويندفع إليه.. لكنه صاح هاتفا بصوت صبياني غاية في الطرافة: الله! الخراز أهه! ويعوج رقبته يتابع سير الخراز في اهتمام.. ثم ما لبث أن اعتدل جواري ماشيا في حرج كأنه أحس بأنه قد كبر على حلاوة زمان.

تـمـت